د. رشدى فكار
المفكر الإسلامى العالمى

ونهاية عمالقة
فى حضارة الغرب

إعداد وتقديم
سيد أبو دومة

الناشر
مكتبة وهبه
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

مطابع دار التراث العربى

ت : ٩٣٦١٤٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

" ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا"

"صدق الله العظيم"

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

وها هو المجلد الذى كثيراً ما تطلع القارئ العربى إليه يجد طريقه إلى مكتبته وبلغته **"نهاية عمالقة فى حضارة الغرب"** كما تعامل معهم وتحاور مفكرنا الكبير الذى يتمتع بشهرة عالمية . فعملاق يتكلم عن عمالقة إنه المفكر الإسلامى المعروف الدكتور رشدى فكار الذى خص الكاتب الإسلامى خميس البكرى بحوار متواصل فى مجلدين . المجلد الأول عن **"مشاكل العصر"** ، والمجلد الثانى عن **" قضايا تراث المسلمين "** .

وإنه لمن تحصيل الحاصل أن نفرد سيرة منفصلة لمفكرنا الكبير الدكتور رشدى فكار لذا نكتفى بعجالة نقلع بها من أعماق صعيد مصر حيث مولده فى قرية الكرنك الواقعة فى شمال محافظة قنا وينتمى إلى قبائل عربية كان لها تاريخ طويل فى حضارة الإسلام من مشرقه إلى مغربه حتى الأندلس وهى قبائل "هوارة" المعروفة والتى ما زالت حتى يومنا هذا ترمز بحضورها فى مختلف بقاع أمتنا إلى وحدة هذه الأمة وتكاملها عقيدة وأرضاً وتاريخا بل وسلالات .

بعد دراسة فى الأزهر حيث حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى جانب متون الفقه حتى ألفية ابن مالك ثم تابع سيرته الدراسية فى القاهرة لينتقل إلى السربون ويكمل دراساته العليا بحصوله على درجة الدكتوراة منها عام ١٩٥٦ ولا يقف بطموحاته عند هذا الحد فينتقل إلى جنيف محاضراً وباحثاً علمياً فى نفس الوقت ليحصل على درجة دكتوراة دولة أخرى مع مرتبة الأستاذية من جنيف عام ١٩٦٧ .

حاضر وتقلد الأستاذية فى كثير من الجامعات الأوروبية والعربية ثم انتخب عضواً فى العديد من الجمعيات والهيئات والأكاديميات والمؤتمرات

العلمية العالمية نخص بالذكر منها على سبيل المثال لا الحصر عضويته فى أكاديمية العلوم بفرنسا لدائرة ما وراء البحار (بمجامع الخالدين) منذ ١٦ فبراير عام ١٩٧٣ وعضويته للهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية " أدلف " بباريس وجمعية " استرنبرج " الأسكندنافية بالسويد ، كما أقر ترشيحه لجائزة نوبل منذ أكتوبر عام ١٩٧٦ مع إرجاء التحكيم ، فضلا عن انتمائه لمؤسسات علمية عالمية أخرى كأحد المتخصصين المتميزين فى المدارس الوضعية سانسيمونية كانت أم كونتية أم ماركسية أو تطورية ، بالإضافة إلى تخصصه الأكاديمى فى علوم الإنسان الأساسية : السوسيولوجيا والسيكولوجيا و الأنثربولوجيا الاجتماعية .

وتعتبر موسوعته العالمية فى هذه العلوم الثلاثة من الموسوعات الهامة فى صياغة مضامين علم الإنسان ، كما أن نظريته مع أعضاء من الأكاديمية الفرنسية وعلماء آخرين عالميين عن **السانسيمونية والمراهنة الصناعية** فى خمس مجلدات وبخاصة المجلد الخامس عن **المراهنة الصناعية وأزمة الحضارة** التى تعتبر من الإضافات المهمة فى تقنين مسيرة حضارة الغرب ومصيرها .

ولعل القائمة الواردة فى نهاية هذا الكتاب تعطى للقارئ نظرة شمولية عن اهتمامات هذا المفكر العالمى الذى لم تشغله تخصصاته الأساسية عن تقديم ما يزيد عن اثنى عشر مؤلفاً تهتم بطريقة أو بأخرى بالعالم العربى الإسلامى أحدثها ما قدمه عنه خميس البكرى وأشرنا اليه سلفاً عن **"قضايا تراث المسلمين "**.

فمؤلفات الدكتور رشدى فكار تربو على الـ ١٤٠ بين كتب وأبحاث ودراسات أغلبها بالفرنسية أساساً أو بالإنجليزية وبعضها بالعربية وعالجت هذه الدراسات مواضيع متعددة من الفكر الاجتماعى وعلى سبيل المثال مدرسة توسكان الاجتماعية فى إيطاليا وروسيا قبل أحداث أكتوبر واسترندبرج والمجتمعات الاسكندنافية واليسار الهيجلى وعلاقته بالفكر

الفرنسي وأصداء الفكر الاجتماعي الأوروبي في أمريكا اللاتينية بما في ذلك حركة الأرجنتين الشابة وانعكاسات الفكر الوضعي في المكسيك وارتداد الفكر الاشتراكي في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر بما في ذلك تجربة **الايكوري لكابيه** وهي أول تجربة شيوعية فشلت في الولايات المتحدة وهيجل والفكر الوضعي في أسبانيا وأثر الفكر التقدمي في المشرق وانعكاسات المدرسة السانسيمونية في الخلافة العثمانية من مصر حتى الجزائر إلى جانب دراسات أخرى عن الاستمولوجيا والتقنين المعرفي والمنهجية .

وكان أول كتاب صدر لمفكرنا الكبير الدكتور رشدي فكار بالفرنسية عام ١٩٥٥ عن دار النشر العالمية " أوربان ميزونيف " بباريس ويعالج **"نظرية القلق والفرج بعد الشدة"** لدى مفكري الإسلام ، ثم تابع المؤلف إنتاجه في علوم الإنسان وبخاصة السوسيولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية . إلى جانب أصول النظريات الوضعية في القرن التاسع عشر .

ولم تشغل مفكرنا المعروف هذه التخصصات الأساسية له عن اهتمامه بانتمائه الفكري وحضارته الإسلامية الأصيلة فوضع مؤلفاً مهماً بعنوان **"تأملات في الإسلام "** بالفرنسية ، كما اهتم بأصول العلاقات الثقافية بين الغرب والعالم العربي .

وقد حاول الدكتور رشدي فكار أن يطرح في العديد من مؤلفاته معيارية لعلاقة العلم بالدين باعتبار أن الدين أسمى من العلم ولا يمكن أن ينزل إلى مستوى المضاربات المعملية والمخبرية لأنها مضاربات تتغير بتغير الأزمنة فإن كان ولا بد من فتوى فليس العلم صاحبها ليحتكم إليه في صلاحية الدين أو عدم صلاحيته وإنما العكس في أغلب الأحيان صحيح . فالدين له الحق ممثلا في الإسلام وهو خاتم الرسالات وبه أكمل الدين الشامل وله كامل الحق إذن أن يتدخل ليحتكم إليه في مدى

صلاحية العلم إنطلاقاً من دوره فى البناء الصالح للإنسانية كما أن له الحق أن يتحفظ على مسيرة علوم تتبنى التدمير والقهر وتعميم التلوث والاستغلال باسم الهيمنة والسيطرة .

ولم تقف اهتمامات الدكتور فكار عند حد ما أشرنا إليه سلفاً من موضوعات لمؤلفاته بل تصدى فى العديد من دراساته الأنثروبولوجية الاجتماعية لظواهر التغميض كالسحر والتخاطر وذلك عبر معيارية علمية ارتكزت على الممارسة الذهنية وتوظيف وسائل وطرق البحث بعيداً عن كل مجازفة أو مغالاة أو عفوية .

ومن أحدث المؤلفات الجديرة بالإشارة لمفكرنا الدكتور رشدى فكار "المعجم الموسوعى العالمى من أربع أجزاء " كما أشرنا سلفاً بثلاث لغات فى ثلاث تخصصات علمية هى الإنجليزية والفرنسية والعربية عن السوسيولوجيا والسيكولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية عن دار النشر العالمية " جتنير " بباريس ، وهذه الموسوعة العالمية تعالج مضامين علم الإنسان فى محاوره الثلاثة : الإنسان كنتاج تراثى تقاليد وعادات وأعراف وهى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، والإنسان فى علاقاته البيئية كمؤثر ومتأثر وهى السوسيولوجيا ، والإنسان كأغوار شعورياً ولا شعورياً وهى السيكولوجيا . وفى كل مضمون كان المؤلف يواجه معطيات هذا المضمون كما قدمته حضارة الغرب بما يستقى من حضارة الإسلام ليصل إلى المضمون الشامل للإنسان ، فمثلا مضمون الدين طرحته الحضارة الغربية إنطلاقاً من نشأته فى الأديرة وغيرها وغاصت به فى ضباب التجريد واللا ملموس لكى يتواجه ويتجاوز فى عصر النهضة بعد أن تحرك العقل وتمرد لنصل بعد ذلك إلى البديل وهو فلسفة الإنسان محاولة أن تقنن الدين كمرحلة تاريخية تأزمت وحوصرت مع إقلاع الضغوط العلمانية لكى تأتى المدارس الوضعية وتصفى الحسابات كل بطريقته مع هذا الدين ، وجودية غير إيمانية كانت ، أم ماركسية أو

تطورية أو فرويدية الخ .. هذا مضمون الدين فى مناحيه الأساسية لدى حضارة الغرب المعاصرة . إن الدين بالنسبة لهم نسق مضلل ظل ألف عام يغمض ويحتكر الإفتاء فى كل قضايا الإنسان وما حوله . وجاءت ثورة العقل الإنسانى لتضع حداً له وتعطى البدائل فى انتظار قدوم الإنسان الخارق المتحلى بأخلاق السادة " نيتشه " ؟

أما فيما يعنى مضمون الدين فى حضارة الإسلام فليس هناك تصفية حسابات أم ثأر لأن هموم الغرب من الخطأ أن تعمم لتصبح هموم البشرية . فحضارة الإسلام تعنى ألف عام من الإشراق أو يزيد وبقدر ما يتنكر أو يلتزم بها صاحبها وحاملها بقدر ما ينتكس أو يشرق . فإشراق الدين فى حضارة الإسلام كان هو المنير لمسيرة بشرها وبه تستنير . وهكذا كان الحال فى بقية مضامين علوم الإنسان عبر هذه الموسوعة العالمية والهامة للدكتور رشدى فكار .

فمفكرنا العالمى الكبير بحق يعتبر منظراً متعدد الحيثيات بنزعته الحوارية كما هو متفرد فى تكوينه ومسيرته وتأهله وعطائه فهو من ذوى الحضارتين ، حضارة الإسلام وحضارة الغرب ، فليس بالمتطفل على حضارة الإسلام فهو منها وإليها ، وليس على حضارة الغرب بالدخيل فهو المتخصص فى أصولها ومنابعها والمقنن لمسيرتها .

واليوم حينما نقدم **هذا المجلد الخاص بنهاية عمالقة فى حضارة الغرب** إنما نقدمه من موقع التخصص والاختصاص والتأهيل والموضوعية أعددناه للقارئ العربى وعلى مختلف مستوياته فقد جمع بين دقة الالتزام بالأسس العلمية والرغبة فى المخاطبة بأسلوب مبسط ومباشر وعرض متناسق لم يغفل الواقعة أو الحدث كما لم يتجاوز التقنين بالانفعال والمجازفة فكنا بالتالى أوفياء لمفكرنا بقدر وفاءنا بتعريفه بهؤلاء العمالقة .

إن حضارة الغرب وهى تقدم الآن الإنسان الأنموذج فى نهاية هذا القرن بانجازاته علماً وتكنولوجية وتصنيعاً يقتدى به ويقلد فى سلوكه بل ويحاكى فى اختياراته يتطلع اليه الإنسان الآخر كغاية للحياة المثلى وتتأثر به الأجيال جيلا بعد جيل فى تربيتها ولو على حساب أصولها وتراثها . فحينما نقدم هذا الكتاب عن نهاية عمالقة فى حضارة الغرب إنما نسعى من بين ما نسعى إليه أن يبرز إلى أى حد يمكن تقنين هذه الحضارة ما لها وما عليها من خلال عظماء مفكريها ومن ثم نوعى شباب أمتنا ليستنير ويأخذ طريقه المتميز معتزاً بتربيته ، فمن هذه الزاوية كان تقديمنا لهذا الكتاب بالعربية وهو فى حد ذاته إثراء لمكتبتنا التربوية الإسلامية .

إن الحضارة الغربية ارتكزت أساساً سواء فى عصر الأنوار والمعرفة أو فى عصر البدائل عبر القرن التاسع عشر وأصدائه فى القرن العشرين هى حضارة رد الاعتبار للإنسان كما يزعمون .

الإنسان هو المحور . الإنسان هو الغاية والهدف . الإنسان القادر الذى يطمح فى التعامل مع المستحيل .

هذه الحضارة من الخطأ أن ينظر إليها على أنها حضارة الوسائل والأدوات تكنولوجية كانت أم صناعية تجريباً أو تطبيقاً بل هى حضارة الإنسان المتمرد ذو الوعى الشقى الذى قرر القطيعة مع كل ما يغمضه أو يعرفه مبتدأ بالقطيعة مع اللاهوت والميتافيزيقيا والفكر التجريدى مستبدلا قراءة الطبيعة والإنسان كنصوص وبتشريح الطبيعة كظواهر توطئة لتشريح الإنسان مستغلا فى ذلك ما اكتسبه من امكانات منهجية فى إطار الاختبار والتجريب وما تراكم لديه من معرفة فضلا عن النضوج الفكرى الذى لم يلد فجأة وإنما نتيجة لإسهامات مختلف الحضارات السابقة وعلى رأسها حضارة الإغريق وحضارة الإسلام .. وهكذا تعاونت عوامل مختلفة لتؤهل حضارة الغرب الحديثة إلى ما هى عليه الآن من

عطاء سائد وهيمنة واقتسام للكون عبر شقيها ، فالأم واحدة . الليبرالى والماركسى .. اندفعت هذه الحضارة بقيادة عمالقة وما أكثرهم سواء فى إرهاصاتها الأولى ومدخلها عبر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر بل وما قبلهما أو فى نضوجها وتراكمها عبر القرن السابع عشر والثامن عشر ليأتى القرن التاسع عشر مسجلا مرحلة جذرية فى عملقة هذه الحضارة ، فكل ما سبقه آل إليه وما نحن فيه الآن صدى لدفعه وعطاءه . ولهذا فالقرن التاسع عشر فى حضارة الغرب هو القرن المحورى الذى لا يمكن أن يتجاهل كمركز لهذه الحضارة ، ففيه ولدت المذاهب الكبرى واكتشفت القدرات التى لعبت دوراً هاماً فى دفع الصناعة واكتشاف البخار والكهرباء ، وخطأ التجريب العلمى الذى لا يمكن أن تُغفل إنجازاته فضلا عن أنه العصر الذى يمثل الازدهار للهيمنة الغربية على الكون فى صور شتى متعددة فى وسائلها ولكن فى مجملها تعنى السيطرة والتحكم .

فحضارة الغرب لا شك أنها غنية بعمالقتها وفى كل المجالات ، وحينما نقدم نهاية لعمالقة فلا نعنى بالضرورة أننا نطرح كل العمالقة وإنما نقتصر منهم على ما شاءت أقدارنا - على حد تعبير مفكرنا الكبير الدكتور رشدى فكار - فى أبحاثنا أن نتعامل معهم ونتجاوز عبر ما قدموه من فكر خلاق وانجازات أصداؤها تتردد فى كل مكان ونعنى بذلك عمالقة فى علوم الإنسان متكاملين مع نماذج على سبيل المثال لا الحصر من أرضيتهم الأساسية ونعنى بها فلسفة الإنسان تاركين لغيرنا أن يقدم نماذج أخرى من عمالقة التجريب والعلوم الطبيعية . والرأى لا يأتى إلا من احترام الرأى الآخر .

عمالقة من محترفى المضارابات الكبرى على مستوى الاستراتيجية الكونية وهؤلاء يؤذن لنا أن ننعتهم بعمالقة القهر المنضبط ظاهره الرحمة وباطنه العذاب لا يتورع حينما يعجز سيفه الظالم أن يلجأ لكل وسائل

الغش المحسوب والزيف المستتر ، هؤلاء ندعهم كمضاربين لمن يضارب عليهم كما ندع عمالقة التجريب العلمى فى حضارة الغرب ، ولهم منا على عكس عمالقة القهر كل إجلال وتقدير فهم بما قدموا من اكتشاف للقوانين ونجاح فى التجارب المخبرية ثروة يعتز بها الإنسان فى كل مكان ..

وعلى ضوء هذا التحديد الذى أردناه - كما يضيف الدكتور رشدى فكار - "سوف نطرح على التوالى عمالقة من حضارة الغرب فى علوم الإنسان وفى أرضيتها الأساسية وهى الفلسفة وغايتنا من هذا الطرح ليس التعريف بهذه النماذج من العمالقة فمن يريد أن يتعرف على حياتهم تفصيلا ما عليه إلا أن يتعامل مع مصادرهم ومراجعهم وما أكثرها ، وإنما الغاية تكمن فى أن هؤلاء العمالقة من الخطأ أن يرقى بهم إلى درجة التقديس والقداسة فهم بشر لهم لحظات الإشراق عرفوها ، كما أنهم خاضوا وحل المعاناة وحتى الأعماق . تحدوا وبوعى شقى معلنين صيحة الإنسان وفى غمرة التحدى تداخل معهم الاستكبار بل والتكبر والإنكار وغاب عن المتحدى حتمية قوانينه . ليس فقط بيولوجياً وإنما معرفياً فمهما كانت المعرفة فستظل نسبية أمام ما لا يعرف ، وصدق الحق سبحانه وتعالى حين يقول : **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[1] . سوف نتحاور مع هؤلاء العمالقة وبهدوء ورزانة بعيداً عن المجازفة والانفعال والعنف أو الإشفاق" .

وسوف نركز أساساً بعد أن نقدم فكرة عن كل عملاق - كما حدد لنا الدكتور رشدى فكار إطار العرض - على نهايته وقد كانت له تجربة سابقة فى دراسة بالفرنسية تحت عنوان "نهاية العمالقة" قدمها فى حينها وفى إطار محدود أملته طبيعة التوثيق كما خضع لإطار زمنى محدود حيث استفاد من تعامله مع عمداء التنظير الاجتماعى فى الغرب عبر تخصصه ليقدم هذه الدراسة عن نهايتهم فى حينها وهم على التوالى :

(١) الإسراء : ٨٥ .

"سان سيمون . أوجيست كونت . كارل ماركس" والثلاثة ينتمون اجتماعياً كما هو معروف إلى "المدرسة السانسيمونية" بشكل مباشر أو غير مباشر . فـ"سان سيمون" هو مؤسس للمدرسة و"أوجيست كونت" كاتبه ومنظر للوضعية فيها بعد وفاته و"كارل ماركس" - كما أشار الدكتور رشدى فكار فى مؤلفاته - ما هو إلا "هيجلى مسنسن" أى "سانسيمونى" أو "سانسيمونى مهيجل" ويضاف إليهم الرابع وهو "هربرت سبنسر" الذى تأثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالمدرسة السانسيمونية كما اعترف بذلك فى مؤلفاته عبر "أوجيست كونت" ، هذا بالإضافة إلى "ماكس ڤيبير" المنظر الاجتماعى المعروف الذى لا يمكن أن يتجاهل عبر واقع المبارزة فى التنظير الاجتماعى بين ماركسية ماركس التى تأثر بها وبين ليبراليته التى آل اليها .

وفيما يعنى حدود العرض كما يوضح لنا مفكرنا الإسلامى الدكتور رشدى فكار أنه اليوم وبلغتنا الجميلة نقدم هذا الكتاب موسعاً ما أمكن من حقل العمالقة بما يتناسب واتساع الزمن الذى عبر منذ دراسته لهم بالفرنسية والتى قدمت من قبل فيضيف إلى العمالقة نماذج أخرى ودائماً فى إطار علوم الإنسان وفلسفته كأرضية أساسية لها مثال "نيتشه ، سترندبرج ، سارتر" والقائمة طويلة لمن يريد التفصيل .

لهذا نكتفى بهؤلاء على أن ننهى العرض بتساؤل : هل هى نهاية عمالقة أو عمالقة النهاية ؟

ونعنى بذلك مآلية الأزمة إما المأزق أو التفجير والانتحار ، ولم لا التجاوز والتجانس والانسجام إنطلاقاً من الذات ليؤول فى إطار من الإيقاع الذى يتناسب مع عملاق لينحنى إجلالا لله تحت راية الإسلام .

ولنبدأ من البداية مع رائد التنظير الاجتماعى فى حضارة الغرب لا نتيجة لتعدد عطاءاته فى مختلف اهتمامات الإنسان وإنما لتعدد وتنوع

تأثيره وأصدائه عند من حملوا الراية بعده من العمالقة فى حضارة الغرب ونعـنى بذلك "هـنرى دى سان سيمون" فمن هو هذا العملاق وما هى نهايته ؟

وهذا هو موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب بعد عرض مدخلى يحمل عنوان تساؤل مبدئى هو " وعن حضارة الغرب يتساءلون" .

سيد أبو دومة

* * *

عرض مدخلى

وعن حضارة الغرب يتساءلون

• تمهيد :

إن القضية التى اخترناها للحوار فى هذا المجلد تعنى نهاية عمالقة فى حضارة الغرب . ومن الطبيعى قبل أن نتحاور مع مفكرنا الكبير حول هؤلاء العمالقة أن نعطى تمهيداً عن هذه الحضارة التى تسود الكون حالياً بشقيها الليبرالى والماركسى على حد سواء ، فكلاهما غربى الجذور والمنابع ، وبوسائل الغرب يسيطر ويهيمن ، ونعنى بذلك التقدم العلمى والمنهجى ، المعرفة التكنولوجية ، التطبيق الصناعى ، حضارة الغرب ، أهى معجزة أم هى استمرار لمراحل سابقة لها تمخضت بل ونضجت من خلالها ، بعد أن آلت الشعلة إلى أوروبا التى كانت بصدد البحث عن الإنسان الذى صادرته الأنسقة الكنسية ، وألغت فيه قدرة الخلق والإبداع بعد أن علقته بين الضباب وتركته يلهث تحت ثقل الأساطير والخرافات والفكر التجريدى وشطحات الميتافيزيقيا . فسقط على الأرض باحثاً عن وضعيته وذاتيته ؟

إنه لمن الخطأ أن ينظر إلى هذه الحضارة على أنها خارقة وشاذة ومتميزة .. إلى غير ذلك من النعوت التى سعى البعض إلى النفخ فيها وتضخيمها تيئيساً للآخرين حتى يخامرهم القنوط ، وتضعف فيهم الهمم ، فيتقبلون بقناعة سيادة الغرب التى لا تقهر ، وصولجانه الذى لا تحده حدود ، حضارة الغرب ليست معجزة ، وإنما هى مرحلة من مراحل تاريخ الإنسانية ، نعبرها اليوم للأسف فى موقع المسود لا السائد ، بعد أن كنا وخلال ما يقرب من ألف عام محوراً رئيسياً من محاور الكون ومصدراً أساسياً من مصادر إشراق الإنسانية وإشعاعها .

حضارة الغرب فى منابعها وجذورها وإرهاصاتها الأولى ، لا يمكن

بحال أن تعزل عن حضارة الإسلام الممثلة فى هذا التراث المتكامل الإيقاعى الذى استطاع أن يغطى المعارف الانسانية المختلفة ، فضلا عن إعطائه الأولوية للغاية المثلى له كفكر . ونعنى بذلك السهر على الأصول المجسدة فى عقيدة الإسلام قرآناً واجتهاداً من السلف إلى الخلف ، وظف إمكاناته ليس فقط فى إطار التخصصات الأصولية وإنما وظفها أيضاً فى اللغة نحواً وصرفاً وبلاغة وأدباً وشعراً ، ثم تكامل هذا العطاء مع ما أملته امتدادات الإسلام بتراث الآخرين ، وكيف أن العقل المسلم لم يتحجر ويتحنط وينطوى ، وإنما تفاعل وتعامل مع نتاج الآخرين وتقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم ، إلى جانب استئناسه لما قدمته حضارة الإغريق من منطق وعقلنة .

تراث المسلمين فى كل هذه الأبعاد مكن دورتنا الحضارية من أن تتصدر وأن تعطى فى كل المجالات ، تسهر بغيرة على الإسلام كما تشجع العقل على التفتح أيضاً فى مجالات الفنون والعلوم والعمران . نتذكر هذه الدورة العملاقة ونحن بصدد حضارة الغرب فى إرهاصاتها ومنابعها ، لأن هذه الحضارة فى جذورها تغذت عبر قنوات ثلاث : قناة المواجهات الصليبية ، وقناة صقلية حيث كانت تمثل جسراً بين مشرقنا والغرب ، تعبره الأفكار تجاه الشعوب اللاتينية ومنها إلى بقية شعوب أوروبا . وقناة ثالثة وأساسية وهى قناة الأندلس ممثلة فى عمالقته من ابن رشد إلى جانب ابن حزم إلى ابن طفيل والقائمة طويلة . فلا يمكن بحال أن تعزل حضارة الغرب فى جذورها عن تغذية هذه القنوات لها ، ليس فقط فيما يعنى رد الاعتبار للإنسان ومشروعية فكره وجدارة عقله بأن يعلل ويسبب ويبحث ويشرح دون أن يتنكر للسماء . لقد كان المعيار الذى تحركت من خلاله حضارتنا أن الوحى والعقل لا يتعارضان ، بل العقل فى خدمة الوحى لأن الذى أوحى هو الذى خلق العقل ومَنَّ عليه وكرّمه بالعلم ، هذا المعيار لم تقف أصداؤه عند حد الباحثين عن الإنسان فى ركام المصادرة والإلغاء الكنسى ، وإنما الكنيسة فى حد ذاتها ممثلة

فى قديسيها وعت بهذا الإيقاع والتناسق بين الوحى والعقل ، كمثال القديس "توماس الاكوينى" الذى تأثر فى هذا المضمار بأفكار ابن رشد وما حوله . وهكذا أسهمت الحضارة التى انبثقت من الإسلام وتحت رايته فى وضع الأسس لحضارة الغرب . نذكر هذا وبكل تواضع وموضوعية مصداقاً لقول الحق : **"ولا تبخسوا الناس أشياءهم"**[1] .

حضارتنا لم تقف عند حد التنوير لدروب وممرات العصور الوسيطة المظلمة الأوروبية ، وإنما أعطتها الاستنارات الأولى وفى مختلف الجبهات من اكتشافها لأبوتها الإغريقية الرومانية ، فشراح فلسفة الإغريق أساساً وفى غالبيتهم من شيوخنا ، من ابن سينا والفارابى والرازى حتى ابن رشد . إلى اكتشافها أيضاً لقدرات العقل سواء لمعرفة الطبيعة أو الإنسان . فمن ينكر أو يتنكر ، يجهل أو يتجاهل هذا النتاج الإسلامى الذى ترجم جانب كبير منه إلى اللاتينية انتحالا بمعنى ترجمة المخطوطات دون الإشارة فى العديد من الأحيان إلى مؤلفها ، وإنما تعمد إسقاطه ، أو تحاشى ذكره ليس فقط فيما يعنى الفلسفة والإنسانيات ، وإنما فى علوم الطبيعة والرياضيات كان لنا العديد من الأسماء القادرة التى أخذت الشعلة من أياديها لا ليحملها أبناؤها وأحفادها ، وإنما ليحملها الآخر ، نذكر "البيرونى" و "جابر بن حيان" و "الحسن بن الهيثم" ، كما نذكر "الرازي" ، و"ابن سينا" وغيرهم ، وغيرهم الكثير فى الفلسفة والإنسانيات ولم لا الفلك والكيمياء والطبيعة والرياضيات ، مخطوطات من هنا ومن هناك انتحلت باللاتينية لتشكل أرضية من بين الأرضيات التى جسدت أساس بناء حضارة الغرب . يذكر دائما لـ"فرانسيس بيكون" أنه كان شغوفاً بالمخطوطات ، بل تعتبر خزينة مخطوطاته من أكبر الخزائن فى البلاط الإنجليزى آنذاك ، فهو قد كان من المقربين فى البلاط ومن النبلاء ، "فرانسيس بيكون" هذا الذى يشار إليه فى القرن السابع عشر ،

---

(١) الأعراف : ٨٥ .

وبالتحديد سنة ١٧١٩ حينما قدم الأداة فى التجريب العلمى ، وصنف المعرفة والعلوم ، وكان هذا تاريخاً هاماً من تواريخ الدفع الأول لحضارة الغرب المعاصرة . الذى جاء بعد اجتهادات "روجى بيكون" راعى الكنيسة قبل ذلك بما يزيد عن قرنين ليطرح الملاحظة والتجريب ، ويبشروا بفجر جديد لمعرفة الإنسان ، هذا الفجر الذى امتد إشعاعه ، واتسع ضياءه مع "فرانسيس بيكون" الذى أشرنا إليه ، وفى فترة لم تتجاوز بضعة أعوام كانت مؤلفات "ديكارت" وفى نفس عصر "فرانسيس بيكون" وقرنه وعبر فترة لم تتجاوز عشرين عاماً ، ارتكز العقل على التجريب مصدراً للملاحظة ، كما ارتكز على التنهيج والتسلسل المنطقى فى استيعاب الظواهر وهكذا عرفت البشرية صفحة متميزة تتلو الصفحات السابقة لإشراق العقل الإنسانى ، هذه الأمانة التى كرّم الله بها بنى آدم ، كما اصطفى من بنيه الأنبياء والرسل ، وبرز الحكماء والفلاسفة ، وذلك فى إطار الاحتكام أساساً للعقل الكامل الذى لا يخطئ بالنسبة للمؤمنين والقانعين بنور الهداية وحوار السماء بجانب السماح لهذا العقل أن يستدل وأن يقيس انطلاقاً من المسلمات بفرضياتها وتعاريفها وبديهياتها ، كما استلهم "أرسطو" فى منطقه الصورى "الأرجنون" ، هذا المنطق الذى استدلت البشرية باستدلاله أو تحت تأثيره فيما يتجاوز العشرين قرناً من الزمان ، يتأمل العقل ليستنير بقدرته ليكمل الطريق دون تنكر لقدرة القدرات المثلة فى حوار السماء ، ومن تنكر وأعرض عن ذكر الله متباهياً بعقله ، معانداً ومستكبراً كثيراً ما قاده هذا العقل – وهو أساساً جاء للاستنارة – قاده إلى الظلمات والطريق المسدود . كما سنلاحظ فى هذا الغربى الذى انتفخ مغروراً بقدراته الذهنية ، باستثناء من عرفتهم حضارة الغرب كفلاسفة مؤمنين مثال "باسكال" ومن سار على نهجه ، أو اختار طريق مراهنته مروراً بـ"جبرائيل مارسلين" حتى "جان كيتو" المعاصر . تيار محدود يدافع عن الزمن والخلود ، وتركت ساحة الغرب للعقول المحتجة والمتمردة بوعيها الشقى لتصول وتجول وتملى على

البشرية مراهنة رهيبة بعد أن قطعت الحوار مع السماء ، وأدارت الظهر لنوره وهدايته ، وأرادت الحياة الدنيا ، فكان مبلغهما من العلم .

ولكن حضارة الغرب ، وعنها يتساءلون ، كيف وصلت إلى هذا الحد من القطيعة مع أنها انطلقت فى إرهاصاتها الأولى فى تردد ووجل متسائلة حول مصادرة فكر الإنسان وتغميضه ، متحفظة على هذا التجريد له ، وأنه قد آن الأوان لهذا الإنسان أن يوقف نصيته لذاته وللطبيعة على حد سواء ، الطبيعة نصوص والإنسان نصوص تؤخذ ظواهرها كمسلمات ثم عن طريق القياس والاستدلال بـ "إذا" يكون "فعليه" ، هذا الإنسان وهنا نعود لنأخذ بخطوط استمرارية آثار التجريب العلمى والمنهج الكارتزيانى ، وكلاهما نضج فى القرن السابع عشر ، إلى جانب تيارات أخرى ، تشكلها مدارس نقدية وفلسفية ودعاة إصلاح وتطوير ليس فقط فى مجال الكنيسة مع المحتجين الحركة البروتيستانية لوثاريين أو كلفانيين ، وإنما إصلاح المجتمع برمته كما بشر بذلك دعاة التعاقد الاجتماعى من "هوبز" و "لوك" و "جان جاك روسو" ، وإصلاح العقل وترويضه عبر فلسفة التاريخ والفلسفة الاجتماعية ليعمق فلسفة الانسان ويعطى لها حق التعليل والسببية ، فأضيفت أسماء وأسماء من حملة مشعل هذه الحضارة يتناوبون ويتكاملون كل فى موقعه من "مونتاسكيو" و "لايبنز" و "كانت" و "سبينوزا" ، إلى جانب المثاليين من "كامبنيلا" إلى "مور" حتى "ماكيافيل" مروراً بممرات الاجتهاد فى طبيعة العلاقات الإنسانية ، وتربية السادة والأمراء ، وحقوق الشعوب ومصائرها ، فضلا عن تشجيع التعرف عليها بالاكتشافات ، فكان العالم الجديد وكان الدفع فى كل اتجاه ، وتبلورت عصور الأنوار ، وتصدر المعارفيون بدوائرهم ، وهكذا تحولت صيحات التحفظ بل والتساؤل المتردد إلى موجات الاحتجاج والمطالبة بتصفية الحسابات مع المسئولين عن مصادرة الإنسان والتطلع إلى البدائل ، بدائل التحنيط والتحجير والانغلاق ، واندفعت حضارة الغرب بالإنسان ليندفع بها إلى كل الأجواء لتعلن حضورها وفى

كل الساحات ، وهنا نصل بهذه الحضارة التى عنها يتساءلون إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن الذى يليه ، فترة زمنية من المخاضات لم تتجاوز القرنين من الزمان . ولكنها كانت مكثفة فى عطائها ، واثقة من دفعها واندفاعها ولو بثمن غال يتمثل فى جريان أنهار من الدماء ، الثورة الفرنسية الكبرى والمواجهات الدموية التى شهدتها أوروبا كجسد لا تخلو خطواته من المجازفة والمغامرة فى سبيل استعادة الذات . وكانت الحركات الاجتماعية التى يقودها الإصلاحيون والمثاليون ، بل ولم لا الميدانيون من دعاة العمل المباشر ، والمواجهة مع قلاع الترسيب وما تبقى منها من آثار تعرقل خطوات هذا الانسان المارد الذى لم تقف به طموحاته عند حد إصلاح داره ، وإنما وبشهية مفتوحة لا تمل الافتراس ، تطلعت تيارات ، منها ما تحرك تحت راية المغامرة ، ومنها ما تحرك تحت شعار الثأرية والقصاص ، ونعنى بذلك التيارات التى مثلت المد الاستعمارى الذى آل فى نهاية المطاف مع مشارف القرن العشرين إلى تقاسم العالم بين الإمبراطورية التى لا تغيب عن أرضها الشمس ، بريطانيا العظمى المنتفخة ، وفرنسا التى أخذت بدورها نصيباً رئيسياً فى القارة الإفريقية ، والآسيوية ، وبقى للبرتغال وإيطاليا وهولندا وألمانيا رغم تصدرها فى الغرب ما تبقى من مائدة بريطانيا وفرنسا ، وحتى روسيا القيصرية بدورها وجدت لها متنفساً فيما يحيط بها من أراضى الغير ، وكل يفترس أو ينهب أو يغزو أو يحتل بطريقته ، يختار ما هو مناسب محاولا ألا يزعج كثيراً ما تبقى من الذئاب حول المائدة ، مائدة ضحايا التخلف وغيبة الوعى بما هو مستجد فى العصر وبالتالى افتقاد التعبئة لمواجهة هذا المارد الغربى الذى كان من أهم ضحاياه ما عرف بالجسد المريض آنذاك وهو سريع فى افتراسه لضعفه وتفككه ، ونعنى بذلك العثمانية ببابها العالى الذى أصبح يرمز إلى الانتكاس والهزيمة والتراجع ولم يبق له من العلوم إلا الاسم ، وفتحت شهية الغرب مما أفضى على حضارته وكانت فى منطلقها لتحرير الإنسان العديد من التساؤلات حول

مدى التزامها بمبادئها الإنسانية ، أم هى فى النهاية **انسانية فى دارها ولا إنسانية للآخرين** . هذا التناقض أبرزه المفكرون المثاليون فى الغرب عبر القرن التاسع عشر حينما أعلنوا وفى أكثر من مناسبة صيحة الاحتجاج أمام سيف الاستعمار المتسلط على الأبرياء ، وكانوا بدورهم يتساءلون : أمن أجل هذا جاءت حضارة الغرب ، لتتسلط على الآخرين وتهيمن وتحول الكون إلى ساحة يتقاسمها السماسرة والباحثين عن الأرباح باستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، لا الباحثين عن إعلاء الإنسان بمساعدته لأخيه الإنسان ؟ وخير مثال يذكر فى هذه المناسبة صيحات السانسمونيين الفرنسيين أمام جنرالات فرنسا ، وهم يسفكون دماء الأبرياء فى مغربنا العربى ومشرقنا ، وحتى الفكر المثالى والإنسانى الإنجليزى بدوره تقبل بمرارة اسغلال وطنه لأوطان الأبرياء الآخرين وخصوصاً الهند ، وحتى بين دعاة الاستغلال وأدعياء التحضر المزيف لم يستقر الحال ، فكانت الحروب بين من أخذ نصيب الأسد ومن ألقى إليه بسواقط المتاع ، حرب فرنسا وألمانيا التى انتهت بسقوط الإمبراطورية الفرنسية فى بداية السبعينات من القرن الماضى (القرن التاسع عشر) ، ثم ما تم فى منتصف الثمانينات من هذا القرن من اتفاق بين الاستعماريين المستغلين ، وارتضى بينهم كمعيار لا أخلاقى لامتصاص خيرات الشعوب المغلوبة على أمرها ، هذا المعيار هو "من يملك فعلا يملك شرعاً" . وهكذا تحول المد الاستعمارى إلى أمبريالية متجانسة ولو شكلياً ، وقسمت مناطق الضحايا **"هذا لك وهذا لى"** كما تم من اتفاقيات بين فرنسا وانجلترا فى بداية القرن العشرين لتفتيت أمتنا بين محتل إنجليزى ومحتل فرنسى ، ولقد حاولت الحركات الوطنية التى كانت تنطلق دائماً من بيوت الله مبشرة باستعادة الهوية باستعادة الذات ، وألا كبرياء ولا عظمة إلا لله . وبالتالى لا يمكن أن تُعزل الحركات الوطنية فى أمتنا العربية المسلمة عن صيحتها المعبئة "الله أكبر" . وشاركنا فى نفس المصير ما يحيط بنا من مجتمعات إفريقية وآسيوية وحتى أمريكا اللاتينية ، ومع هذا أيضاً

لم يرض المغتصب بما اغتصب ويكتفى بما أخذ ، وإنما بدأ كل يتطلع ليأخذ شيئاً من تحت أقدام الآخر ، فالقوة فى النهاية هى المرجع والإحالة . فكانت الحرب العالمية الأولى ، ثم فترة استراحة بين الطامعين لاستعادة الأنفاس ، ثم الحرب العالمية الثانية التى أكدت لنا مصداقية وصحة ما تنبأ به مفكرو القرن التاسع عشر من الإنسانيين والمثاليين سانسيمونيين وغيرهم حينما أعلنوا أن حضارة الغرب لإعلاء الإنسان لا استغلال الإنسان . ولكن كما أشرنا شهية الربح والاستحواذ والكسب باسم الافتراس والاستيلاء ، شجعت الاكتشافات والتقدم العلمى والتطبيق الصناعى والمعرفة التكنولوجية على التوسع فى ذلك بمشروعات كبرى تطمح لاستغلال الخيرات ، ليس فقط ما فوق الأرض وإنما ما فى باطنها من ثروات منجمية وخصوصاً المعدنية والبترولية فى الصدارة ، هذه المشروعات الكبرى التى احتوت أيضاً مد القنوات - السويس وبنما - لتسهيل التجارة وحركة التنقل والاستغلال فضلا عن السكك الحديدية وبنوك القروض التى أسهمت فى انتشار وتصدر مردودية رأس المال ، **استغلال فى كل مكان** ، رغم صيحات التحدى له والتواجه معه فى كل الساحات . فسالت أنهار من الدماء فى قلب الغرب كانتفاضات لمن عانوا من ثقل القهر والطغيان عبر القرن التاسع عشر ، كما سالت أنهار من دماء الشهداء وأبطال مواجهة الاستعمار بقدر ما كان زحف المستغلين ثقيلا ومكثفاً ، بل وخانقاً فى بعض مناحيه ، بقدر ما كانت المقاومة له رهيبة وغائية ، لم تقمع بالاحتجاج والاعتراض وإنما بوسائلها المتواضعة وإمكاناتها المحدودة ، لم تجد ما توقف به هذا الزحف إلا تكتل أجسادها عارية من كل شئ إلا من قناعتها بمشروعية حقها فى الحياة أو الاستشهاد . وعن حضارة الغرب يتساءلون . يتساءلون عن إنجازاتها التى استطاعت أن تحقق رقماً قياسياً من حيث اختزال الزمان والمكان وتراكم المعرفة والخلق والإبداع فى العلوم التجريبية لظواهر الطبيعة وعلوم الإنسان . وأصبحت من خصائصها المتميزة

وسماتها البارزة لتخصص وتوزيع العمل ، والارتكاز على التقدم العلمى والمنهجى ، وتبنى المعرفة التكنولوجية فى التطبيق الصناعى .

وارتكزت بذلك على العقلنة والتسلسل المحسوب والانضباط والتنسيق والتنظيم وأفرزت لها كقدرة تؤمن بها سيطرتها وهيمنتها كحضارة سائدة مستودعاً رهيباً من أسلحة التخريب والترهيب والدمار : ذرية وهيدروچينية وبكتيرية بيولوجية ، كما أفرزت ما تغطى به وتخدر أعصاب المتوترين الخائفين على مصير البشرية والمتخوفين من نهاية المراهنة فى هذه المعادلة الصعبة وذلك بزعمها أن كل هذا التقدم لصالح البشرية ويعطون أمثلة بما حقق فى مجال التقدم الطبى والوقائى للإنسان وما حقق أيضاً فى مضاعفة مردودية خيرات الطبيعة بحسن استغلالها عن طريق التكنولوجيا المتطورة وما أدخل على المواصلات برياً وبحرياً وجوياً من وسائل الراحة والاختزال للأمكنة وتقريب المسافات وما أنجز حضارة لا يمكن بحال أن يغفل هذا الجانب من الإنجازات فهو يحسب لها وبحق ولكن يحسب العديد من السلبيات وفى مطلعها غياب إنسانية الإنسان .

هذا الإنسان الذى من أجله وبه كانت حضارة الغرب وباسمه أعلنت القطيعة مع التغميض وتعرية الخرافات والأباطيل والأساطير ، لتفك أسر الإنسان من تسلط الضلال وتعلن حضوره كمحور للوجود منه وإليه . فإذا بها فى النهاية بعد أن فكت ما زعمته الأثرى بالنسبة له ، تسقط به فى أعماق ضلاله من داخل الذات ، فبقدر ما تكشف على ما يحيط به من ضلال وقع فى النهاية أسيراً لضلال نفسه ، حينما أدار ظهره للسماء ونادى بسقوط أى فلسفة ما عدا فلسفة الإنسان ، وصدق الحق سبحانه وتعالى حين حدد لنا فى هذا المضمار المآل بقوله : « **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله** »[1] . لقد تحرر الإنسان من شياطين الآخرين

---

(١) الحج : ٣ ، ٤ .

فإذا به يقع أسيراً لشيطان نفسه يتعالى ويستكبر ويطغى ويتمرد ، وغاب عنه أن ما توصل إليه من معرفة ما هو إلا تكرم من خالقه شريطة ألا يطغى به ، وقد كانت الآية الكريمة الأولى فى القرآن الكريم التى حددت لنا الغايات الكبرى ، لمحيط الإنسان ومعرفته ، فجعلت قسماً من المعرفة لا إذن به إلا من الخالق بانفراده بالخلق ، وذلك معرفة الغيب عالم الغيب : **«اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق»** [1] . ثم تكرمت على الانسان أن يقرأ هو فى عالمه تكرماً من الله ويستجديه أن يزيده علماً وطلباً له ، كل هذا شريطة ألا يطغى ويتنكر لمن وهب له نعمة المعرفة ، يقول الحق : **«اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى»**[2] . هل وصلت حضارة الغرب بالإنسان إلى مستوى الطغيان فى قراءته ؟ أم أن ما نعيشه فى نهاية هذا القرن ما هو إلا شطحة من شطحات الانبهار بعد السباحة فى الفضاء والتنزه فوق القمر ، ليعود الإنسان مرة أخرى منحنياً ومتواضعاً أمام خالقه شاكراً له سامى تكرمه ونعمائه عليه . وهذا يدفعنا مع المتسائلين حول حضارة الغرب كيف أن دفعة من دفعات الغرور والاغترار حينما تجاوزت الحدود الموضوعية لها آلت بالبعض إلى الانهيار وبالبعض الآخر إلى الجنون أو الانتحار ، ولم لا ؟ هناك من آلت به إلى التدبر والارتداد الواعى ، والتراجع نحو مسيرة الحق بعد أن تكشف له التزحلق نحو الضلال ، وفى هذا المضمار كان الحوار الذى مهدنا له بهذا العرض : **«عن حضارة الغرب يتساءلون»** ، مع المفكر العالمى والمنظر الإسلامى الكبير الدكتور رشدى فكار ليتناول فيه نماذج من هذه الفئات التى تجسد شريحة من شرائح عمالقة الغرب ، على سبيل المثال لا الحصر نقدمها متتالية فى فصول مبتدئين بـ "سان سيمون" .

* * *

---

(١) العلق : ١ ، ٢ .

(٢) العلق : ٣ - ٧ .

الفصل الأول

سان - سيمون

عميد من عمداء منظرى حضارة الغرب

لنتحاور أولا مع سان سيمون الإنسان قبل أن نتحاور مع نهايته كعملاق ، الإنسان هذا النبيل الذى نشأ فى العائلة المالكة بفرنسا وترعرع بين الأمراء ، هذا الإنسان المفكر الذى استطاع أن يترك بصماته على ما يسمى بقدرات العقل الغربى ، صاحب الحضارة السائدة حالياً بشقيها الليبرالى والماركسى . فمن "سان - سيمون" ومن غيره كانت منابع هذه الحضارة التى ارتكزت على الإنسان مفجرة للكامن من طاقاته مرة باسم الخلق والإبداع ، وأخرى باسم التمرد ، وثالثة باسم الوعى الشقى ، ورابعة باسم بدائل الإنسان لكل ما هو تغميض والتباس وتحنيط .

سان - سيمون كلود هنرى دى روفيروا ، الكونت سان - سيمون ، ولد فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٠ بمدينة النور باريس ، وهو ابن عم الدوق الشهير "سان - سيمون" رجل البلاط الفرنسى وصاحب المذكرات الشهير ، ومع هذا فإن كان الدوق اكتسب شهرته من بلاطه ، فـ "سان - سيمون" الذى يعنينا بنى المجد بالعقل والعطاء ، هذا النبيل "هنرى سان - سيمون" كم كان عجيباً منه أن يقول لخادمه وهو ما زال طفلا : "لا توقظنى كما هى العادة بالنسبة للآخرين ولكن عليك حينما تريد إيقاظى وبوضوح قائلا : "استيقظ سيدى الكونت ، إن هناك عملا عظيماً ينتظرك وإلا ما استيقظت أبداً " . وكذلك نراه فى الثالثة عشر من عمره حينما اصطحبه والده ليعمد كبقية النبلاء فى الكنيسة رفض وبسخرية مما أساء العلاقة بينه وبين والده ومع هذا لم يغفل تربيته وسهر على ما تبقى من طفولته حتى ذهابه فى سنة ١٧٧٧ ليشارك متطوعاً باسم الحرية فى حرب الاستقلال التى كانت تقودها الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك ، وشهد حصار

يورك (شارك فيه) وأبلى فيه كذلك فى معركة بريستون وقد ساد الاعتقاد أنه قتل فى هذه المعركة التى واجهت الأميرال "كراس" بالأميرال "رودنى" . ومن ثم هذا الفتى المتشبع بالمثل العليا برهن لأسرته على أنه ليس فقط نبيلا بلقبه ، وإنما نبيلا بخلقه بعد مشاركته هذه ، اتجه إلى المكسيك حيث أهله انتماؤه للأسرة المالكة فى فرنسا كى يلتقى بنائب ملك المكسيك الذى اقترح عليه قناة تربط المحيطين مما مهد فيما بعد لما يعرف بقناة "بنما" ولكن فى وقت "سان - سيمون" كان هذا مستبعداً وعاد إلى فرنسا ليصبح فى الثالثة والعشرين من عمره عقيداً فى الجيش وربطته صداقة بـ"مونج" ، ولكنه ترك الجيش ومل حياة الثكنات العسكرية راحلا إلى هولندا ثم إلى اسبانيا حيث مرة أخرى تعود إليه أحلام القنوات ليقترح حفر قناة تربط مدريد بالبحر .

وحينما وقعت أحداث ١٧٨٩ المشهورة وعبر دمويات الثورة ارتضى "سان - سيمون" لنفسه أن يتحاشى المواجهات وأن يقبع فى ركنه مع أنه قد شارك فى ثورة الجمهورية وتحررها فى أمريكا ، أما فى فرنسا فكان كل ما فعله "سان - سيمون" فى البداية أن أعلن تنازله وعلق به واختارته جماعة من السكان ليكون رئيساً لمجلسهم البلدى وهى جماعة "فال - فى" . ولم يحاول "سان - سيمون" أن يشارك فى الصراع بل اهتم بالجوانب الإنسانية والمشروعات والعمل فى الأسواق المالية ، ولكن الشبهات بدأت تحوم حوله وكانت هى شعار هذه الفترة الرهيبة من تاريخ فرنسا "الكل مشبوه حتى إشعار آخر" عصر "روبسبير" ، فألقى به السجن وقبع فيه حتى نهاية "روبسبير" .

وفى ١٧٩٧ افتتح "سان - سيمون" صالوناً فكرياً له فى باريس يلتقى فيه الأدباء والعلماء والفنانين وتلقى به المحاضرات مجانياً وحرص على أن يكون صالوناً كصورة مصغرة للمدرسة الهندسية التى كانت تقع فى مواجهة صالونه ثم اهتم بالتجارب الفيزيولوجيه ، وكل هذا على نفقته

وارتبط بعلاقات حميمة مع قادة الفكر آنذاك أمثال "كبنيس" ، "بيشيه" ، "بلان فيبلا" ، "جان بانيست سيه" رجل الاقتصاد الشهير من أتباع "آدم سميث" وغيرهم الكثير ثم انتقل إلى مقر آخر أمام مدرسة الطب بباريس . مزاولا لنشاطه الفكرى ومستمراً فيه . وفى ١٨٠١ كان مشروع زواجه الذى لم يعمر طويلا مع الآنسة "دى شان كران" واستقر فى شارع "فيفيينا" وجعل من دار الزوجية صالوناً فكرياً متميزاً فى باريس حيث كان لقاء الفكر بين العلماء محيطاً إياهم بكل مظاهر الرفاهية والراحة حتى يقدحون قريحتهم ويقدمون له الدرر فى النقاش ولكنه تأسف للنتائج المتواضعة التى أسفرت عنها هذه التجربة حيث قال : "ضيوفى من العلماء يأكلون كثيراً وبدلا من أن يتكلموا من أفواههم يتكلمون بأصوات خفية من أماكن أخرى" ! . ولعل هذا أدخل على آمال "سان - سيمون" القنوط فلم ينته العام إلا وقد كان طلق رفاقه وزوجته ورحل إلى چنيف باحثاً عن البديل حينما سمع عن غانية القصر وفى نفس الوقت رائدة ومنبع الحركة الرومانطيقية فى أوروبا "مدام دى ستايل" صاحبة "شاتوكوبى" أو "مدام كوبى" فى ضواحى چنيف ، وكان والدها وزير المال لملك فرنسا "نكير" عشية الثورة الفرنسية ، أما هى فكان منتداها قبلة عقول أوروبا شعراء وأدباء وعلماء . وكفى أنها ليست فقط منبع الحركة الرومانطيقية فى الأدب كما أشرنا وإنما المرأة التى تحدت الإمبرطور نابليون بونابرت مؤلبة عليه أوروبا وانتهى به المطاف إلى مأساة واترلو .

ومرة أخرى يعانى "سان - سيمون" من خيبة الأمل كما عانى فى تجربته الزوجية الأولى ، لم تعره مدام ستايل اهتماماً ولم تستجب لرسائله ، "وقد قمنا بنشر المراسلات هذه غير المعروفة منذ سنوات" (مجلة الدراسات الأدبية والفلسفية).

ورحل بعد ذلك "سان - سيمون" إلى إنجلترا وألمانيا . وفى ألمانيا كان الانطباع لـ "سان - سيمون" أنها ما زالت فى خطوات الطفولة بساحة العلم وأن التفكير فيها غير واضح وطابعه الغموض .

واستمرت حياة عملاقنا واستجد حدث جدير بالتسجيل كما أشار إلى ذلك فى مؤلفه "سيرة حياتى" أنه وقد تجاوز الأربعين واكتملت تجاربه ومعايشته لكل ظروف الحياة وعلى كل المستويات والطبقات الاجتماعية فقد عاش نبيلا بين النبلاء وانتهى فقيراً بين الفقراء قرر أن يكتب فكان أول نتاج له يحمل عنوان : **"رسائل من مواطن فى جنيف إلى معاصريه"** . وقد أهدى كتابه المحدود فى نسخه إلى "نابليون بونابرت" حيث كان يميل "سان - سيمون" إلى طابع لا نقول الديكتاتورية وإنما الانضباط والنظام ، كما أهدى نسخاً أيضاً لامبراطور روسيا وبعض قادة أوروبا . ونشر هذا النتاج الأول سنة ١٨٠٢ واستمر نشاطه الفكرى والإنتاج المكثف من هذا التاريخ وحتى ١٨٢٢ حيث مزج البؤس والمعاناة مع قدرة الخلق والإبداع ، لقد عانى "سان - سيمون" صحياً كما أن الحياة تراجعت به إلى ما تحت الكفاف وعمل فى حرف متعددة من نساخ ليلى يتقيأ الدم فى برودة الشتاء القارس وكم كان غريباً أن هذا النبيل الذى كان يصر فى طفولته ألا يستيقظ إلا حينما يناديه "ديار" خادمه : "استيقظ سيدى الكونت إن هناك عملاً عظيما ينتظرك" ، وانتهى هذا النبيل ليعمل خادماً لقد عرض نفسه على "ديار" الذى أصبح صاحب ورشة للنجارة ، فاحتضنه وجعله فى ورشته يعمل ما يستطيع ، ومع هذا استطاع "سان - سيمون" أن يصر على أن يصل برسالته إلى نهاية المطاف فحققت له بعض أبحاثه جانباً من الشهرة فى عالم الفكر والعلم وبدأ الأتباع والمريدون يحيطون به وعمل كاتباً له "تيرى" بعد أن استطاع عملاقنا أن يجد عملا متواضعاً فى أرشيف "الأسنال" كمساعد مكتبى بفضل علاقة كانت تربطه ب"كارنو" ولكن مرة أخرى وكأنه على موعد مع المعاناة تنحى نابليون عن امبراطوريته وسقط معه كارنو وفقد "سان - سيمون" عمله ومع هذا استمر فى عمله الفكرى وفى سنة ١٨١٦ تعاطف بعض المفكرين فى فرنسا معه فى شكل منحة مؤقتة كمساعدة وفى ١٨١٧ التحق "أوجيست كونت" به ككاتب له وخلال سنوات سبع يساعده بعد أن انصرف "تسيرى" إلى التاريخ تاركاً لـ"كونت" التأملات الفلسفية

مع أستاذه وإصلاح المجتمع ، ومن الغريب أن فترة المعاناة عند "سان - سيمون" هى كانت فترة المعاناة والفقر المادى هى كانت فترة الإشراق والإثراء الفكرى . واهتم فى (١٨١٩ - ١٨٢٢) بإصدار جريدة يغذيها بأفكاره ، ولكن سريعاً ما عاود "سان - سيمون" التأزم وصاحبته الأزمة فكانت محاولته الرهيبة التى تمت فى ١٨٢٣ - وسوف نركز عليها فى الفصل الثانى والتى نخصصها لنهاية عملاق على ما حدث فى ١٨٢٣ وما تلا ذلك حتى ١٨٢٥ وبالدقة فى ١٩ مايو ١٨٢٥ حيث انطفأت شمعة عملاق . ونعود لحياته لنعرف بأن "سان - سيمون" كان متعدداً فى نتاجه الفكرى وإسهاماته دون منازع ، بل استطاع أن يغدى كمنبع تنظير حضارة الغرب وعلى كل المستويات من مذهبه الصناعى إلى تنظيره للمجتمع الدولى والأوروبى إلى رأيه فى فلسفة القرن التاسع عشر ومقدمته لعلم الإنسان حتى نظريته الأخيرة فى مسيحيته الجديدة واضعاً الأسس فى مؤلفاته ليس فقط لارتقاء المجتمع بفضل الإبداع والتطور عبر المشروعات الكبرى ، وهذا ما لعب دوراً رئيسياً فى ازدهار الرأسمالية فى حضارة الغرب أو ما قدمه كأسس للعدالة والحد من الاستغلال وتنظيم المجتمع مما جعله بحق كما يقول "دوركايم" : أباً لكل التيارات الاشتراكية بما فيها الماركسية إلى جانب أبوته لهذا العلم القادر فى علاج المجتمع ونعنى به السوسيولوجيا فضلا عن تغذيته لاتجاهات فكرية ثلاثة فى مدرسته ، وقد نشر نتاجه ونتاجها فى ٤٧ مجلداً ، هذه الاتجاهات يرمز إلى الاتجاه الأول خليفته " أونفونتاه " وهو رائد من رواد المشروعات الكبرى فى القرن التاسع عشر : حفر القنوات ، شبكة السكك الحديدية فى العالم ، المناجم ، نسق القروض البنكية ، وكل ما أسهم فى ازدهار الرأسمالية الغربية ، واتجاه ثان يرمز إليه "اوجست كونت" تأسست من خلاله الفلسفة الوضعية ونضجت السوسيولوجيا كعلم اجتماعى متميز ، واتجاه ثالث يسارى جمع بين دعاة العدالة الاجتماعية إلى جانب المناضلين فى الجمعيات السرية والمسئولين عن ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا مرورا بـ :"كارل ماركس" و "بلانكييه" حتى "كابى" ومغالاته

التى جعلته يصل إلى حد الزعم فى مؤلف له يحمل عنوان "المسيح" وأبرأه الله من ادعائه هو الشيوعى الأول على الأرض وتجاربه التى تحمل اسم "ايكورى" الضيعات الجماعية التى حاول من خلالها تطبيق النظام الشيوعى وغيرها الكثير من التيارات التى تغذت بطريقة أو بأخرى من هذا العملاق "سان - سيمون" ومدرسته ك"فورييه" و "برودون" فى فرنسا ، حلقات موسكو فى روسيا بريادة "هيرزن" و "أوكريف" ، ومدرسة "توسكان" بإيطاليا وفى ألمانيا واسكندنافيا بل وحتى أمريكا اللاتينية ، وخصوصاً مشرقنا ومغربنا العربيين المسلمين حيث كانت هناك أصداء واسعة فى القرن التاسع عشر لأفكار "سان - سيمون" وبخاصة أتباعه ، هذا العملاق كيف انتهى ؟ كيف كانت نهاية عملاق بهذا الحجم وبهذا الثقل المتعدد العطاء ؟ وهذا موضوع الفصل التالى عن نهاية عملاق .

* * *

الفصل الثانى

ومع سان - سيمون ونهاية عملاق

عملاق بدأ نبيلا بين النبلاء وانتهى فقيراً ككل الفقراء "سان - سيمون" الذى يعتبر مع مدرسته منجماً خَرجت منه ذخائر الفكر تنظيراً وتمذهباً وعلى كل المستويات الاجتماعية ، هذا المفكر الذى وإن كان فى لقبه "كونت" ، "سان - سيمون" عمه يتلقب بـ"الدوق" فقد فاق شهرة هذا العم صاحب مذكرات البلاط الفرنسى المشهور وأصبح يذكر ، ليس فقط حين التحدث كما رأينا عن أبوة الاشتراكية الحديثة أو المذهب الصناعى ، وإنما أيضاً حينما يشار فى عصر الازدهار الرأسمالى فى القرن التاسع عشر حيث المشروعات الكبرى السانسيمونية قد لعبت دوراً أساسياً فى هذا الازدهار .... "سان - سيمون" الذى رحل هنا وهناك مرة مجاهداً وأخرى مغامراً بين أمريكا ومروراً بالمكسيك إلى أسبانيا وألمانيا وهولندا . "سان - سيمون" الذى ما تردد أن يشير فى سيرة حياته أنه كان يكتب ويتقيأ الدم وهو فى مستوى الكفاف فى فترات الأزمة وضيق اليد ، وما أكثر هذه الفترات فى حياته ، كيف انتهى هذا العملاق ؟

نقف قليلا مع حياته ثم نسير معايشين لها بهدوء ابتداء من السنوات الثلاث الأخيرة من عمره (١٨٢٢-١٨٢٥) عادت الأزمات والضيق المادى يحاصرانه وفى نفس الوقت وهو فى حصاره يكثف عطاءه الفكرى وكأنه فى إسقاط لهمومه يجد منفذاً من خلال قنوات ذهنه ليعبر عن هذه الهموم لا بتبنى التدمير والهدم ، ولكن الخلق والإبداع ، فهناك مشروعات ومشروعات وعلى رأسها إصدار صحيفة تحمل مذهبه وأفكاره بصفة عامة هنا وهناك ، وفى هذا الخضم يقدم ، "سان - سيمون" العملاق على تجربة أقل ما توصف به أنها تجربة غريبة ، "سان - سيمون" يطلق على رأسه ست رصاصات وتحمل واحدة منهن عينه معها وهى خارجة ويبقى "سان - سيمون" أعور بعين واحدة حتى وفاته خاملا هذا الأثر

لتجربة غريبة ولكنها مريرة . هناك من يتجه من الشراح لسيرته الذاتيه أنها انتحار فاشل لعملاق . فضل أن يضع حداً لحياته من أن تضع هى حداً له . فيأخذ منها فضل السبق باستدعائه للموت لا استدعاء الموت له . كما كرر ذلك فيما بعد عملاق آخر - "نيشته" - حينما قال : " أنا لا أنتظر الموت يفاجئنى بحضوره حين بغتة ولكننى أستدعيه فى الوقت المناسب" .

"سان - سيمون" لدى فئة أخرى من الباحثين فى سيرته يربطون هذه التجربة المريرة بالفضول العلمى الرهيب لهذا العملاق . فهو كما أشرنا من قبل كان من المهتمين بعلم وظائف الأعضاء : "الفيزيولوجيا" بل إنه أطلق على العلم الجديد الذى دعا له ، بل كان من أول الدعاة له وهو العلم الذى عرف فيما بعد بالسوسيولوجيا أعطى له "سان - سيمون" كتسمية الفيزيولوجيا الاجتماعية . فالفيزيولوجيا كانت من اهتمامات "سان - سيمون" وربما دفعه فضوله ليتعرف على وظائف المخ وكان كثيراً ما يتناقش مع رفاقه ومريديه حول وظائفه ، ولعله أراد أن يختبر معرفته بهذه الوظائف ولكن بطريقة عملية محزنة . لقد خرج "سان - سيمون" من هذه التجربة ليعمر بعد ذلك ، وبعين واحدة يقرأ بها ويكتب ليقدم لنا نتاجه الأخير "المسيحية الجديدة" وقد كان معروفاً عن "سان - سيمون" فى كتاباته من قبل أنه كاستمرارية للمعارفيين وعصور الأنوار وبخاصة كونت "دورسى" جاهر بعدائه للكنيسة وتمرده عليها حتى فى طفولته حينما رفض التعميد وحمل عليها حملة شعواء فى مختلف كتاباته باعتبارها المسئولة والمدانة ، ليس فقط عن مصادرة العقل وإنما بكل بساطة مصادرة الإنسان . ولكن هل يعنى هذا أن "سان - سيمون" بدوره تبنى مصادرة المصادر وإلغاء الكنيسة التى ألغت الإنسان وبالتالى إلغاء من تمثله وهو الدين والإله .

فى الواقع ، الكتابات الأخيرة لهذا العملاق بعد تجربته الرهيبة والحوار

الفريد الذى تم بينه وبين أتباعه ومريديه وهو يحتضر ويلفظ الأنفاس الأخيرة يؤكد لنا أن نهاية العملاق ارتدت به وبوعى عما دافع عنه فى فتوته الفكرية وتبناه ، فهذا "سان - سيمون" الذى يعلن فى سنواته الأخيرة أن العلم والدين لا يتلاغيا - أى كل يلغى الآخر حتى يبقى - وهنا نسترجع الكلمات الأخيرة لنهاية هذا العملاق "سان - سيمون" المحتضر لم يتركه أتباعه ومريديه أن يعبر اللحظة الأخيرة دون أن يعلن رأيه بوضوح حول هذه القضية : العلم والدين .. ونهاية عملاق ، وهذا الذى يعنينا فى الصدارة عبر هذا الحوار أيضاً . كيف انتهى "سان - سيمون" وموقفه من الدين ؟ يقول "سان - سيمون" ما معناه (لمن يريد التفصيل يراجع المجلد الأول من مؤلفنا **"السوسيولوجيا الاشتراكية الدولية لما قبل الماركسية : تأثير سان - سيمون)** : "القضية بين العلم والدين لا تكمن فى تحديد من يختفى ليبقى الآخر ، وإنما كيف يتعاون العلم والدين لإسعاد الإنسان والمجتمع باعتبار أن الدين تراث الإنسان ومجتمعه والعلم مستقبله وأهله . إذن العلم والدين كلاهما ضرورى للإنسان وعليهما أن يتعاونا لما فيه إشراقه وإشعاعه واعتزازه بإنسانيته وتطلعه لغد أفضل .

نهاية هذا العملاق الذى منه أقلعنا فى حوارنا هذا المتواصل وهو ليس بعملاق بين العمالقة ، وإنما هو رائد بين الرواد لعصره ولما استجد بعده . نهاية هذا العملاق تؤكد لنا أن العالم المفكر بقدر ما يتبحر ويغوص متفتحاً وسابحاً حتى الأعماق يكتشف أنه ما أوتى من العلم إلا القليل وأن ما توصل إليه من معرفة لا يقارن بما يجهله وما تبقى عليه أن يعرفه فى عمره المحدود ويشعر أنه حينما يقترب بنتائجه فيما اعتقد أنه محدد ومحدود يبدأ فى جولة اللامحدود والذى لا تحده حدود فيرى جهله بما تبقى من حقائق الأشياء وأعمق مما تعرف عليه وعرفه ، وهنا لا يملك إن كان نزيهاً مع ذاته إلا أن يعلن التواضع فى ارتداء واع لما ألقى به فى فترة الفكر وفى حماس العطاء وهذا ما فعله "سان - سيمون" شأنه فى

ذلك شأن غيره من بقية العمالقة الذين اخترناهم كمجرد نماذج فى علم الإنسان وفلسفته عبر هذا الحوار المتواصل الذى سوف ينقلنا الآن إلى عملاق آخر لنتحاور معه وهو الامتداد الأول لـ "سان - سيمون" ونعنى به كاتبه وتابعه ومريده رائد الفلسفة الوضعية الذى ألحقت باسمه ونعنى به "أوجست كونت" .

* * *

الفصل الثالث

أوجيست كونت رائد المذهب الوضعى

مع اوجيست كونت فى حوارنا المتواصل سوف نتشعب عبر مسالك هذا المفكر لنعطى فكرة عنه كإنســان وعن نتاجه كمنظر ، ونقف وقفة مفصلة ما أمكن فى مشارف نهايته كعملاق وكيف أنه آل به مذهبه الوضعى فى نهاية المطاف إلى العرفان للإسلام والتعريف بدوره الحضارى الخلاّق .

ازيدور أوجيست مارى فرانسوا كازافيه كونت المعروف بـ "أوجيست كونت" بزغ إلى الوجود عام ١٧٩٨ فى مدينة مونبيليه بفرنسا ، بينما كان قرن فكرى شامخ يلفظ أنفاسه ، ومجتمع فرنسى يهتز تحت عوامل التغير والتبديل .

ولد كونت سراً وكأن المجتمع يتردد فى قبوله ضيفا (وربما هذا يفسر لنا الكثير من نظرياته فيما بعد ، الداعية لتأصيل المجتمع ، وصراحته وتقويم واقعه) لقد كان زواج أمه "فليسته روزالى" بأبيه سراً وتعميده سراً آخر فهو ابن أسرار ، حاول ما أمكن أن يقدمها كحقائق اجتماعية ، تشهد بحاجة الأسرة - وهى صورة المجتمع الأولى - إلى الإصلاح والتفهم ، لقد كانت أمه تكبر أباه بإثنى عشر عاماً ، وبالتالى تشكلت أسرته منذ البداية فى شكل مائل أعرج ، فتطعم أوجيست كونت منذ طفولته الأولى بالمشاكل الأسرية ، وتعايش معها ما أمكن ، وساعده على ذلك عطف أمه وحنانها وتدينها فهى ترى فى الدين مصدراً لكل شئ (وهنا نجد أول انطباع لما جاء فيما بعد أيضاً ، على لسان كونت من أن الحالة الأولى اللاهوتية فى نظرية الحركية الاجتماعية تؤكد أن الدين مصدر لكل فلسفة ولكل علم) . من الأدب إلى الرياضيات ، ومن

الهندسة إلى الطب ، تنقل فى دراسته وتشعب ، فجاءت واسعة متكاملة ، جعلت آفاقه الفكرية تتفتح فى نظرة شاملة على المعارف الإنسانية ، قوى الذاكرة طموح متطلع له مقدرة وصبر على العمل . تقدم لأكثر من مسابقة فكان فى الطليعة دائماً . خلف أساتذته فى التدريس ، وتحمل المسئوليات العلمية وهو لم يزل فى سن مبكر ، رحل إلى باريس ، ليستزيد من العلم فى مدينة النور . واعتمد على نفسه ، فأعطى الدروس الخاصة إلى جانب المساعدة العائلية الضئيلة ، كى يستكمل تكوينه العلمى ، وأتيحت له الفرصة كى يتعرف مطالعاً ودارساً ومتتلمذاً على كبار عقول الفكر الفرنسى ، رغب فى الرحيل إلى أمريكا ليكون أستاذاً للرياضيات ، ولكن شاءت الظروف أن لا تحرم فرنسا من هذه العقلية الجبارة ، فلم تحقق رغبته ، وبقى لفرنسا كنزها الفكرى ليتفجر على أرضها ، تعلم الإنجليزية وحاول أن يترجم بها ، نهل من منهل العلم ومن أعماق الفكر الإنسانى وتأثر بفطاحله ورواده وكان ممن تأصلت أفكارهم فى فكره ومن تحركت آثارهم تحت قلمه "مايستر ١٧٥٤-١٨٢١" و "بوسيه ١٦٢٧-١٧٠٤" و "بونالد ١٧٥٤-١٨٤٠" و "كوندرسيه ١٧٤٣-١٧٩٤" و "هويز ١٦٧٩-١٧٥٨" و "هيوم ١٧١١-١٧٧٦" وخصوصا أستاذه "سان-سيمون ١٧٦٠-١٨٢٥" الذى عمل كونت كاتباً له عدة أعوام (ولنا عودة خلال هذا البحث لتحديد بعض معالم تأثير "سان - سيمون" فى أفكار كونت) .

لم تمنع حياة العلم والجد كونت مع مرح موسمى ولهو فطرى برئ ، غير أن اللهو قد تعرف بدايته ، ولكن فى حالات كثيرة يصعب تحديد نتائجه وأبعاده ، وسقطت فى طريق كونت غانية من غانيات الليل وعشاق حاناته ، وكأن الليل بظلامه حال دون تحديد معالم الرؤيا لكونت المرهف الرقيق ، فتوعك فى خطواته ، ودخل فى تجربة مقلوبة ، معكوسة لزواج

أمه بأبيه ، فكان هو صورة لرقة أمه وأصالتها وكانت زوجته على مستوى لامبالاة أبيه . وعاش كونت من جديد وفى شكل آخر مشاكل الأسرة فى هذه المرة ، أسرته هو لا أسرة أبيه . فلقد تزوج كونت بها رغم معارضة عائلته ، وعكف على إقناع زوجته بأن تغتسل من جنابة اللهو ، وتتطهر من حياة الحانات ، كانت تجربة واقعية عملية ملموسة لكونت فى إصلاح المجتمع ، مجتمعه الصغير (والذى منه أخذ النماذج الأولى لإصلاح المجتمع الكبير مجتمع الإنسانية) . فبدلا من أن يجعل من منزله حانة جعله قاعة للمحاضرات ، وكانت أول محاضراته لمريديه عن الفلسفة الوضعية فى إبريل ١٨٢٦ ولكن سريعاً ما أخذ الوهن طريقه إليه ، فلم تستطع الأهلية المادية الطبيعية لجسد كونت البشر الضعيف التكوين العضلى ، أن تكون على مستوى الأهلية الفكرية العقلية لكونت المفكر العملاق ، فانهار الجسد أمام قوة التفاعل الفكرى العميق ، لقد حضر الأتباع والمريدون لسماع المحاضرة الثالثة فى منزله فوجدوا الصمت خلف الباب المغلق وكأن الصمت بطول قامته واستمراره أوحى إليهم أن شيئاً ما قد حدث خلف هذا المسكن المتواضع ، حيث الكتب والطبخ والأكل ، والنوم والدرس ... يتعايشون وجهاً لوجه فى هذا المكان الضيق العارى من كل شئ إلا من عظمة كونت وجبروته الفكرى الأصيل- لقد حمل الأستاذ المعلم فى رفقة أحد أتباعه من الأطباء إلى مستشفى للأمراض العصبية وحضرت الأم من مونبيليه ترتدى أعواماً باليَة تجرها من خلفها وقد تجاوزت السبعين بقليل ، لتعود به من حيث أتت ، وهنا تقف الزوجة – وقد عاد إليها بصيص من الرشد الموسمى – إلى جانب زوجها توليه الرعاية وتصر على أن يبقى فى باريس ، ويعود إلى محاضراته سنة ١٨٢٩ فى منزل متواضع بشارع "سان جاك رقم ١٥٣" ومع عودته أشرق فجر شهرته فحاضر فى الأماكن المشهورة بباريس واستمع إليه جمع غفير فى "قاعة الاتنية" ، وبدأت محاولات نشر أفكاره تتخذ طريقها إلى

التنفيذ وبشكل ملموس ، وعين محاضراً بمدرسة الهندسة وحاول الدخول إلى "كلية فرنسا" الشهيرة كأستاذ لتاريخ العلوم الرياضية والطبيعية ، ولكن لم يمنع هذا التطور الإيجابى فى حياة كونت المفكر أن تمر حياته بهزات وأزمات مادية ، فرغم عطف مريديه ومساعدتهم عرف كونت صحبة البؤس والفاقة خلال فترات متتالية من حياته ، مما جعل اليأس يدب فى قلب زوجته ذات الطباع المتغيرة المتقلبة فتخلت عنه فى أغسطس ١٨٣٢ ، ازدادت حساسية كونت للهموم بفراق زوجته وصعبت عشرته ، واتجه به موكب الحياة إلى العزلة ، وأوشك على الانهيار ، بعد أن تصدعت معنوياته ، ولكن قيض الله له رجلا محباً للعلم مفكراً عارفاً بقيمة الرجال ، فراسله من إنجلترا ، ووقف إلى جانبه وبدأ يعرِّف بآرائه وراء "المانش" إنه العلامة "جون ستيوارت مل" ، ساعده فى نشر انتاجه ثم حلق بموكب المساعدين لكونت ، والمعجبين بعلمه ، والمقدرين "لفلسفته الوضعية" عالم كبير "ليتريه" عضو الأكاديمية الفرنسية ، ولعب هذا الأخير دوراً كبيراً فى ضمان استمرار كونت المفكر أو شعاع نظرياته ، فكتب "ليتريه" عن كونت وعرَّف به وبإنتاجه عن طريق الصحافة ، وكونت جمعية لمساعدة كونت ، وهى التى أصبحت نواة للجمعية الشهيرة "الجمعية الوضعية" . انقشع ضباب الفاقة قليلا أمام شمس الشهرة ، واطمأنت نفس كونت المفكر ، وإن كان قلب كونت العاشق الرقيق ما زال عارياً، منذ فراق زوجته ، وذات أمسية تعرف كونت على شقيقة لأحد أتباعه . إنها "كلوتلدا" زوجة فارقها المقامر إلى السجن نتيجة لثقته فى الميسر ورغبته فى الثروة السريعة ، دون مشقة أو عناء . كانت أديبة ، قصاصة ، رقيقة لحد الضعف لم تتجاوز الثلاثين ، تعلق كونت بها وتعلق الباحث فى الصحراء عن جرعة من الماء ، وكانت مراسلات طويلة خلال عام ، غير أن المرض كان يشارك كونت فى رفيقته فسلبها منه ، وهى بين ذراعيه فى عشية يوم متقلب الأجواء من أيام إبريل ١٨٤٦ .

ومرت السنون العشر بعد وفاتها غنية بعطاء كونت واشعاعه ونتاجه المتعدد الذى انطلق به عبر تأملاته كمبحث باكورة لهذا الإنتاج وآخر عن حرية الصحافة وبعض التراجم الإنجليزية ثم فى ١٨٢٢ كان مخططه للأعمال العلمية الضرورية لتنظيم المجتمع ثم مؤلفه الهام الشهير "محاضرات عن الفلسفة الوضعية سنة ١٨٤٢-١٨٣٠" فى ستة أجزاء ، وهذا المؤلف يشكل ثروة فكرية لمن يريد التعرف على جوهر الفكر الكونتى (نسبة لكونت) ودوره فى تأسيس السوسيولوجيا (علم الإجتماع) ومع "حديث حول الروح الوضعية سنة ١٨٤٤" و "حديث حول كل أبعاد الوضعية سنة ١٨٤٨" تأكدت أصالة كونت ، وتحددت أبعاد فلسفته ، ومعالمها الخلاقة، ثم تبلور دوره التأسيسى للسوسيولوجيا أكثر فأكثر ، واتجاهه لروح الشمول ، والتخريج الإنسانى لسوسيولوجيته عبر مؤلفيه الهامين "قواعد السياسة الوضعية ١٨٥١-١٨٥٤" فى أربعة أجزاء و "التعاليم الوضعية سنة ١٨٥٢"، ولم يتوقف إنتاج كونت عند هذا الحد فنشر له فى نهاية حياته "نداء إلى المحافظين سنة ١٨٥٥" و " تخريج ذاتى سنة ١٨٥٦ " فى العام الذى توفى فيه ، هذا أهم ما جادت به قريحة كونت من إنتاج ومؤلفات جديرة بالإشارة. ولنقف قليلا لنعطى خلاصة لما جاء عبرها بالنسبة لمفهوم "السوسيولوجيا" كنموذج من نماذج نظرياته المتشعبة المتعددة فى المعرفة الإنسانية .... لقد جاء تحديد مفهوم "السوسيولوجيا" عند كونت نتيجة طبيعية لتكوينه المتشعب ، ودراساته الواسعة فى العلوم الإنسانية ، والطبيعية ، وتأثره بفطاحل عصره ، ومن سبقوه . كذلك كانت فترة اتصاله بـ "سان سيمون" هامة بالنسبة لتبلور العناصر الأساسية لنظرياته السوسيولوجية ، حتى أنه اعترف بنفسه حين قال : " ما أخذته عن سان سيمون فى ستة أشهر يعادل ثلاثة أعوام من العمل المنفرد" ، "السوسيولوجيا" عرفت عند كونت تحت تعبير علم "الطبيعية الاجتماعية" وهو تعبير استقاه من هوبيز

(Hobbes) واستعمله عبر الجزء الثانى والثالث من "محاضراته عن الفلسفة الوضعية" ، وذلك بعد أن تردد فى استعمال التعبير الأصيل الذى أطلقه سان سيمون على هذا العلم الجديد المولد ، وهو تعبير "الفيزيولوجيا الاجتماعية" وسان سيمون أيضاً من قبله تردد فى اختيار التعبير المناسب فمرة يطلق على هذا العلم الجديد التعبير السابق ومرة "علم الإنسان" ... ومرة تعبيرات أخرى كثيرة ....

وبالتالى فالفضل يرجع لكونت بالنسبة للناحية الشكلية الخاصة باختيار التعبير النهائى الذى أطلق ، واستمر حتى يومنا هذا ونعنى بذلك "السوسيولوجيا" فقد ابتكر كونت هذا التعبير من كلمتين لاتينية وإغريقية ، وأورده للمرة الأولى سنة ١٨٣٩ فى "محاضراته عن الفلسفة الوضعية" وأفرد لتحديده الجزء الخامس ، وما يليه من هذه المحاضرات . وعلى عكس ما يميل إليه بعض الباحثين ، وبعض أتباعه ومريديه ، لا نعتقد أن تغيراً جذرياً هاماً قد حدث فى اتجاهات كونت عبر مؤلفاته الأخرى التالية ، بعد ذلك ، أو أن نهاية كونت الفكرية تناقض بدايته ... كونت كلٌ لا يتجزأ فى تطوره ، عرفت نظرياته مراحل متطورة متكاملة ولم تعرف مقاطع مبتورة متناقضة . كونت تأثر بالكثير من المفكرين فإلى جانب ما ذكرنا ، تأثر أيضا بـ "تيركو" وبـ "ديدرو" و "فونتيل" وغيرهم ... واستوعب كونت الكثير من المعارف ، وعرف كيف يتجه بفكره إلى الأعماق . لقد نالت "السوسيولوجيا" على يديه ليس فقط اختيار الاسم وشكل العنوان ، وإنما محاولة جريئة لتحديد مفهومها ، لم تك بالطبع على نفس مستوى أساتذة سان سيمون المؤسس الفعلى لهذا العلم باعتراف "دوركايم" ، وكما تأكد بصفة لا تقبل الشك إلا عند أصحاب الاتجاهات النسبية ممن يقبل رأيهم "كاجتهاد شخصى" لا كتخريج علمى ملزم .

اتجه كونت فى تحديده للسوسيولوجيا على أنها علم يولد التطلع والتطلع يولد العمل ، علم يدرس المجتمع الإنسانى بمعنى الإنسانية كشمول حقيقى ملزم للمشتركين فيه ... علم واضع ، وموضوع (هنا نجد تأثير سان سيمون) شامل بمعنى من الدين والمعنويات والتربية إلى المعرفة كعناصر منظمة ، بفضله يتم التجانس الدائم والتلقائى للنظرى والعملى والتطبيقى... علم بما فيه من سيطرة روح الشمول يفوق علم الرياضيات ... علم يحدد معالم المعرفة الجديدة التى تنظم العلاقات بين البشر على أسس تقنية حيث إن مجتمعات المستقبل مجتمعات صناعية تقوم على العلم وتعتمد على التقنية (هنا مرة أخرى كأن المتكلم سان سيمون وليس كونت فتأثير سان سيمون واضح فى التعبيرات الأخيرة من تحديد كونت لمفهوم هذا العلم) ... السوسيولوجيا علم يعكف على دراسة المجتمع قارياً وحركياً ، عبر تنظيمه ، وعوامل تقدمه ، وقارية المجتمع أو "القارية الاجتماعية" تتكون من أسس ثلاثة ، وحركية المجتمع أو "الحركية الاجتماعية" يكفيها "قانون أحوال ثلاثة" أما أسس "القارية الاجتماعية" فهى استمرارية الترابط الاجتماعى بمعنى ارتباط العنصر الاجتماعى كجزئية ببقية الجزئيات الأخرى ، وبالتالى يميل كونت إلى التفهم الشامل لكل معطيات الظاهرة الاجتماعية تلقائية التعايش الاجتماعى ، الحقيقة الاجتماعية بالتالى ، حقيقة تلقائية فهى توجد دون مخطط شخصى أو تدخل مشرع وعليه فالسلوك مثلا محدد للقانون ليأتى هذا بدوره فيحدده بعد ذلك .. "الأسرة" كوحدة أساسية للمجتمع ، وعنصر اجتماعى نهائى له ، فهى الوحدة التى منها بدأ المجتمع وعلى نمطها يسير وإليها ينتهى فى الأسرة العالمية الإنسانية ، وبالتالى تدعيم المجتمع فى تدعيم الأسرة (يلاحظ محاربة كونت لظاهرة الطلاق كاستمرار لهذا التخريج) .

"الحركية الاجتماعية" هى نظرية التقدم ، كما أن "القارية الاجتماعية" تعنى "نظرية التنظيم" الحركية الاجتماعية يحددها كونت أيضاً بأنها علم الحركية الضرورية والمستمرة للإنسانية ، حاول كونت أن يكيف قانون التقدم حسب الذكاء الإنسانى الذى قاده من "الحالة اللاهوتية" بفتراتها الثلاث : وثنية ، فإشراك ، ثم وحدانية ، إلى الحالة الميتافيزقية وهى بمثابة المترتب بالضرورة والالتزام على الحالة الأولى ، حين محاولة التخريج الديالكتيكى لأفكار كونت ، بمعنى الحالة الأولى تشكل (Thèse) والحالة الثانية الميتافيزقية تشكل (Antithèse) على أن تأتى الحالة الثالثة وهى **الحالة الوضعية فتكون بمثابة المآل أو الصيرورة بمعنى "التخريج النهائى" للحالة الأولى متفاعلة مع ما ترتب عليها بالضرورة والالتزام ، أى الحالة الثانية ، فالحالة الثالثة بالتالى هى التخريج فى ثالوثية الديالكتيك ونهجيته . الحالة الأولى طابعها خيالى تصورى ، والحالة الثانية طابعها تجريدى ، أما الحالة الثالثة فطابعها علمى ، الحالة الثالثة والأخيرة هى الحالة التى تسود فيها السوسيولوجيا وتكيفها علمياً وتقود المجتمع إلى الشكل النهائى الذى هو حصيلة لكل تجارب الإنسانية مجتمعه حيث يتحقق مجتمع الأسرة الإنسانية ، هذه الأسرة التى سوف يرث جيلها كل ما آلت إليه التجارب والتغيرات الاجتماعية ، إنه الجيل الوارث للبقاء الأفضل الذى دفعت ثمنه شعوب الإنسانية فى سيرها الطويل .**

لا شك أن كونت بتطويره حسب ما يرى لتحديد مفهوم السوسيولوجيا قد وفق (هذا رأى نشارك فيه الكثير من الباحثين فى هذا الموضوع) فى محاولته توضيح مكانة السوسيولوجيا من العلوم الاجتماعية الخاصة وكشفه لخصائص الحقيقة الاجتماعية التى لا مراء فيها ، وذلك عن طريق شمولية الظاهرة وإن كنا نشارك جورفتش فى تحفظه على كونت حين تخريج شمولية على أنها معادلة للإنسانية . كذلك وفق كونت حين أكد أن السوسيولوجيا تنمى ما حولها من العلوم وتقودها ، ووفق أيضاً

فيما أضافه من تجارب تاريخية ، واتنقرافية لتأكيد ميدان السوسيولوجيا . ولعل أفضل ما يذكر لكونت (والرأى أساساً هنا لـ"جورفتش" وإن كنا نشاركه فيما ذهب إليه) أنه لم ينساق تحت تيار الرقميات الرياضية والتخريج الطبيعى رغم ضلاعته فى الرياضيات والطبيعيات البحتة ، بل احتفظ "للسوسيولوجيا" بشخصيتها الأصلية ولم يجعل منها مجرد تكرار لغيرها . (وهذا ما وقع فيه كثير من السوسيولوجيين الانجلوسكسون حينما اتجهوا إلى مجرد الرقمية والإحصاء وجمع المعلومات فباتت السوسيولوجيا مجرد تكرار لعلم الإحصاء الاجتماعى وآلية جمع المعلومات فى بعض الأحيان أو نوع من الدراسات السوسيوقرافية لا أكثر ولا أقل وهذا ما أكده العلامة سوركين (من عمالقة الاتجاه الأنجلوسكسونى بعد هجرته إلى الولايات المتحدة) . ويذكر لكونت وبنفس التقدير ربطه لتطور المجتمع بما يبذل فيه من مجهودات عملية (إلا أن الفكرة الأساسية تعود لسان سيمون) ... هذا ما نذكره لكونت أما ما يؤخذ عليه فى تحديده لمفهوم السوسيولوجيا فنترك لـ"جورفتش" عد هذه المآخذ نخص منها - الالتباس عند كونت بين مفهوم "الفلسفة الوضعية والسوسيولوجيا" (كونت كما يراه "جورفتش" عبر هذه النقطة ميتافيزيقى شكلى مقنع ، يسيطر عليه الإبهام والالتباس الألوهى) قوله إن الطبيعة الإنسانية هى هى لا تتغير عبر التقدم ، كذلك رأيه الملتبس فى "الوجدان الجماعى" والعلاقة بين العلوم ، فهو على خلاف سان سيمون وماركس يتجه نحو "الشكلية" رغم نقده "اللاسمية" بل يغالى فى اتجاهه هذا فيحلق فى عالم "التجريد" على أنه الواقع- غياب الديالكتيك الأصيل من عرضه ، رغم التطلع العفوى نحوه ، وإن كان "جورفتش" يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيرى فى روح كونت أنها ضد كل ديالكتيك ، فكونت قد منع على نفسه حل المشاكل وتكيفها عبر المتناقضات المترتبة عليها بالضرورة والالتزام رغم أنها تشكل الحالة

الثانية من قانونه ، وبالتالى جاء بفروض ، ولم يأت بتخريج وحلول رصينة بالنسبة للحالة الثالثة - قصور فى المنهجية عند كونت وعدم تحديد أصيل للمنهج الموضوعى ، والفرق بينه وبين المنهج النسبى ، كذلك عدم تحديده لطبيعة التداخل بين المنهجين ، من أن أحدهما قد يقود الى الآخر . فأزمات المنهج الموضوعى تقوده إلى النسبية ، وأزمات المنهج النسبى تقوده إلى الموضوعية - عدم اتضاح مفهوم الشمولية الاجتماعية لديه ، وتكيف مسطحاتها حتى الأعماق - حتى بالنسبة للتحديد بين قارى وحركى ، كان التحديد.سطحياً إذا ما قورن بالتحاليل الواعية عند أستاذه سان سيمون وربما سبب ذلك القصور الديالكتيكى عنده كما أشرنا - ميوعة تحديد مفهوم "استمرارية الترابط الاجتماعى" فقد غاب عنه أن استمرارية الترابط والبقاء الاجتماعى لا تكون دائماً نتيجة "للانسجام والالتقاء الاجتماعى" وإنما نتيجة لتفاعل المتناقضات المترتبة بالضرورة والالتزام (مثال : طبيعة النضال بين الجماعات الخاصة ، والتنافس فيما بينها) وأخيراً هذا المأخذ الذى قال به كثير من الباحثين فى "السوسيولوجيا الكونتية" بما فى ذلك المتحمسين لكونت والمدافعين فى بعض الأحيان ، ونعنى بهذا المأخذ ارتفاع كونت بـ"السوسيولوجيا" إلى مصاف الفلسفة الأساسية الأولى . إذ كما هو معروف تدرج بها من علاج المجتمع وإصلاحه ، إلى إدارته وحكمه وتنظيمه ، إلى تأليهه وعبادته فى النهاية فهو يعبر الخلفيات إلى السياسة ومن السياسة إلى الدين ... وفى النهاية لم يعد للسوسيولوجيا ما تقتات به على حد تحليل جورفتش . غير أننا وإن كنا نشارك فى هذا المأخذ من حيث المبدأ ، إلا أننا نرفض مغالاة جورفتش ، لقد ارتفع كونت بالسوسيولوجيا هذا حق ، ولكن هذا لا يعنى تعريتها عن كل منطوق ، وتفريغ لجوهرها من أساسه ، وإلا أين نضع توضيحات كونت وتأكيداته لشخصية السوسيولوجيا . فتوضيح الشئ يستلزم وجوده ، وتأكيد أبعاده يستلزم وجود جوهره .

كونت لم يرتفع بجسد السوسيولوجيا وجوهرها ، وإنما ارتفع بأهدافها إلى ما رآه أسمى الأهداف على ضوء طفولته وتكوينه الأول ، فلا يمكن أن نعزل نفس كونت عن فكرة ارتفع بأهدافها فى وقت كان يعيش فيه باحثاً عن انفراج لنفسه ، فى كائن أعظم ليكن الإنسانية جمعاء ، حينما قال كونت إن السوسيولوجيا هى إنجيل دين الإنسانية . كان هنا يشير إلى حد ما إلى ذكريات (لا نقول عزيزة) ولكن هامة على أى حال ، بالنسبة لتكوينه ذكرياته مع سان سيمون صاحب "المسيحية الجديدة" ذكرياته مع المدرسة السانسيمونية كأحد المؤسسين لها. المدرسة السانسيمونية التى تحولت فى فترة من فترات وجوده فيها إلى مدرسة لدين جديد ، خرج كونت منها محتجاً ليعود إليها بوجدانه جنوناً بعد سنوات حينما اقترب من المغيب. هذا الوجدان الذى قاده الى معرفة حقيقة الأديان السماوية الكبرى ، والحضارات التى عرفتها شعوب هذه الأديان قبل التقرير والحكم ، شأنه فى ذلك شأن معلمه "سان سيمون"... هنا كان كونت حقيقة وفياً لأستاذه حينما قادته قدماه إلى هذا الطريق .

فكان تعرفه على الإسلام وموقفه منه ومن حملة مشعله الحضارى المضئ .

* * *

الفصل الرابع

أوجيست كونت .. ونهاية عملاق
بالعرفان للإسلام ودوره الحضارى الخلاق

صفحة رائعة ، وشهادة أصيلة للعرب كحملة للمشعل الحضارى الإسلامى ، ودورهم الخلاق فى تطور العلوم على مستوى عالمى ، جاءت على لسان قادة "الفكر الوضعى" وممثلى قمة الالتزام العلمى فى التخريج وعدم التحيز ، نعنى بهما سان سيمون وأوجيست كونت ... صفحة رائعة مجهولة إلى حد ما بالنسبة لغير المختصين فى هذا النوع من التنقيب العلمى ، لتوخى الحقائق المجردة ، دون تطرف ، أو مغالاة : مدحاً ، أو نقداً ، تأييداً ... شهادة طابعها الاتزان ، شكلت عنصراً أصيلاً من نظريات سان سيمون "مؤسس السوسيولوجيا" الفعلى الحق - كما ذكرنا من قبل - بعد أن ظل تأسيس هذا العلم يلحق تجاوزاً باسم تلميذه وتابعه أوجيست كونت مبتكر التسمية ، نعم لم يؤسس سان سيمون فقط "السوسيولوجيا " فى مرحلتها العلمية ، ونشأتها المنهجية ، وما حولها من الفلسفة الوضعية وإنما نجد كذلك عبر نظرياته أسس أهم المقومات الرئيسية والمعطيات الاجتماعية الخلاقة ، للفترة المعاصرة منذ النصف الأخير من القرن الماضى ... سان سيمون هو واضع الصناعية كمذهب للتقدم ، والتقنية كوسيلة أساسية له . هو الأب الملهم للاشتراكية الإنسانية إن لم يكن أيضاً الأب الفعلى للاشتراكية العلمية (بما فى ذلك الماركسية) كمصدر رئيسى لها ، عبر الجناح اليسارى من مدرسته ، كما أنه هو "منبع" العصر الذهبى للنظام الرأسمالى والليبرالية الاقتصادية العملية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وذلك بفضل الجناح اليمينى لمدرسته ، الجناح الذى أشرف على تحقيق كل المشروعات الاقتصادية الكبرى أو شارك فيها بصفة أساسية ، فى هذه الفترة سواء

فى ذلك شبكة المواصلات الحديدية لكل دول أوروبا ، وشبكة المواصلات البحرية ، مشروعات القنوات العالمية (قناة السويس وقناة بنما) وشركات المناجم الكبرى ، وتأسيس البنوك العالمية فى أوروبا .. الخ ، سان سيمون والمدرسة التى تحمل اسمه منجم فكرى ، ما زالت امتداداته نعيشها حتى يومنا هذا ، كما أكد ذلك العلامة "فرانسوا بيرو" رائد الاقتصاد الفرنسى وعضو المجتمع الفرنسى حيث يرى أنه فى "عصر الصواريخ والأقمار الصناعية" وفى "عصر التقنية" نعيش فى الواقع العصر السانسيمونى ، الحديث قد يطول بنا عن سان سيمون ومدرسته ، لو توخينا التوسع فى هذه الناحية غير أن الذى يعنينا هنا هو مجرد الإشارة فقط لأهمية هذا المفكر الفرنسى العبقرى الكبير ، ودوره الأساسى فى النهضة العالمية المعاصرة ، وبالتالى نعرف قيمة حكمه على العرب "حملة مشعل الحضارة الإسلامية" ، ونقدره حق قدره ، ونتفهم مدى أهمية هذا الحكم على ضوء مكانة قائله فهو ليس بصعلوك ، أو مرتزق يرائى العرب المسلمين ، وليس بالنكرة المجهولة التى لا تستحق التعريف برأيها وحكمها ، وكذلك الشأن بالنسبة لـ " كونت" الذى حاولنا أن نعطى فكرة عنه ، وعن أهميته العلمية كمفكر قبل عرض حكمه على حضارتنا وماضيها المجيد ...

كان سان سيمون مصدراً من مصادر تعريف كونت بأهمية دور العرب كحملة لمشعل الحضارة الإسلامية وما ساهموا به فى تطور العلوم ، وتغذية أوروبا بها فى عصورها الوسطى . لم يكتشف سان سيمون أهمية هذا الدور صدفة أو قال به من باب التخمين ، بل بعد دراسة وإن كانت محدودة من حيث الكم فهى عميقة من حيث الكيف والأصالة . إذ من المسلم به أن سان سيمون لا يلقى القول جزافاً ، وإنما يبلور حكمه ، بعد تمحيص وتدقيق بالنسبة للقضايا العلمية ، لقد درس سان سيمون الإسلام ، وتعرف على أسسه ، كما تعرف على تاريخ المسلمين والعرب

الحضارى وتتلمذ على المستشرق الألمانى "أولنسر" الذى كان عارفاً بتاريخ العرب ومبادئ الإسلام . يعتمد عليه بالنسبة لعصره آنذاك . لقد أنار "أولنسر" الطريق لسان سيمون فاكتشف دور العرب كحملة لحضارة أصيلة وأعلن دون تردد "أن العرب قد قاموا بدور خلاق فى تغذية أوروبا حضارياً فى العصور الوسطى بل كانوا مصدراً من مصادر نهضتها، "هم بمثابة الجسر المتين ، يمده موكب الحضارة العالمى بفضلهم إلى أوروبا ، "هم نقلة العلوم والساهرون على بقائها واستمرارها آنذاك ..." وحينما نقارن ما جاء على لسان سان سيمون مدعماً بالحجج وبعد دراسة عميقة ، بما يقوله دعاة اللغو ، واللغط ممن تحاملوا على العرب والإسلام باسم استشراق زائف – ففارق كبير بين استشراق علمى أصيل ، وبين ارتزاق بالاستشراق – وبحثوا بكل جهودهم عن عورات ابتدعوها ، نجد أن روح مؤسس السوسيولوجيا سان سيمون ومن بعده خليفته "كونت" جاءت مصداقاً للواقع العلمى وأصوب فى الحكم التقريبى المجرد من الأهواء ، وأكثر وفاءً له ، وللنهضة الفكرية الفرنسية الإنسانية الخالدة ... تبنى كونت بين ما تبنى من آراء معلمه ، أستاذه سان سيمون هذا الرأى الصائب السليم فى العرب والإسلام ، وهذا التخريج العلمى المطابق للواقع ، وللدور الحقيقى الذى قام به العرب فى تطور العلوم ونشأة الحضارة الأوروبية ، كما تبنى هذا الرأى أيضاً غيره من أتباع سان سيمون ، خصوصاً رائد المدرسة السانسيمونية بعد سان سيمون ، ونعنى به "انفانتان" حاول كونت أن يوسع مداركه بالتوسع فى مصادره عن الإسلام ودور العرب الحضارى ، فكانت مراسلاته مع "رشيد باشا الوزير الأعظم السابق للباب العالى العثمانى" حول الإسلام ، وكانت علاقاته المتينة بشاب عربى مسلم من مصر جاء للدراسة فى باريس هو مظهر أفندى (محمد مظهر) الذى رحل إلى فرنسا ضمن البعثات العلمية المصرية وتتلمذ مع طالبين آخرين على أوجيست كونت وتتبع محاضراته

بانتظام فى باريس عن الرياضيات ، وغيرها خلال أربعة أعوام . من مراسلات كونت يظهر لنا جلياً مدى الاعتزاز بتلميذه محمد مظهر ومدى حبه له ، ويكفى كمثال يساق ، رسالته المشهورة إلى صديقه الحميم العلامة الإنجليزى "جون ستيوارت مل" بشأن "مظهر" حيث أوصاه به خيراً ، وأن يرعاه ، خلال إقامته بانجلترا ربيع سنة ١٨٤٣ ، ولأن كانت هذه العلاقة تعتبر من المظاهر الأولى لبداية الاحتكاك بين المفكرين العرب فى المشرق بالفكر الأوروبى المادى فى العصر الحديث بما فى ذلك "الفلسفة الوضعية" ، والمذاهب الطبيعية... ولأن كانت أصداء هذا الاحتكاك ما زالت المعرفة بأبعادها التمهيدية الأولى نسبية ، خصوصاً فى الفترة السابقة للمفكر المادى العربى دكتور شبلى شميل ، إذا ما استثنينا حركة الترجمة مع رفاعة الطهطاوى وما حوله وتاريخ البعثات التعليمية المصرية فى فرنسا وأصداء هذه البعثات ، كذلك بعض علاقات كبار المفكرين المسلمين كجمال الأفغانى مع كبار المفكرين الأوروبيين . فالذى يعنينا معرفته ونحن بصدد هذا البحث الآن هو الجانب الآخر من هذا الاحتكاك وعلى سبيل التحديد أثره فى توسيع مدارك كونت عن الإسلام ، وعن دور العرب الحضارى فى عالم العصور الوسطى المظلمة ... لقد نوّع كونت مصادره عن الإسلام كما رأينا ، لم يكتف بما أخذه عن سان سيمون ولا بعلاقاته بمحمد مظهر ، بل راسل رشيد باشا ونقب فى مصادر عديدة تلاحظ حين القراءة لانتاجه ، وتؤكد لنا سعة إطلاعه وأصالة منهجه ، ودقته فى البحث والتحليل ، ورصانة حكمه الذى جاء مفخرة لكل عربى خصوصاً قوله : "فى الوقت الذى كان الغرب يولى اهتمامه لشرح التعاليم الكنسية ، كان العرب يقومون بدورهم الخلاّق ، ولولاهم لما نقلت إلينا الحضارة ولما كان الاحتفاظ بالتراث الإنسانى ، ونقل مرحلته الإغريقية ، فلولا تدخلهم لما عرف الغرب هذه المعرفة للحضارة الإغريقية" ... ثم يزيد فى تأكيد ما قال مكرراً أن العرب هم

حقاً أفادوا الحضارة الغربية باحتكاكها بهم ، قارن كونت بين زعماء أوروبا والزعماء العرب المسلمين فى العصور الوسطى واعترف بتقدم المفهوم الحضارى لدى العرب . فهم يتجهون بحضارتهم إلى إطار عالمى ... كذلك حاول كونت أن يجمع عناصر الالتقاء بين "الكاثوليكية" و"الإسلام" وأن الإسلام دعا إلى هذا الالتقاء السامى وإلى هذه الوحدة التاريخية النبيلة عبر عالمية الدين باعتبار هدفه الأسمى ، وبالتالى التقليل ما أمكن من أهمية النظم الدينية والشكليات والاهتمام بالجوهر ، جوهر الدين نفسه وما يدعو إليه ، توسع كونت فى شرحه للدين الإسلامى ، وبدأ فى تكيف تعاليمه بشكل وضعى (نعنى بوضعى "علمي" كما جاء على لسان كونت نفسه فى تحديده لتعبير "وضعي") خصوصاً عبر انطباعاته فى "رسالته النادرة الموجهة لرشيد باشا الوزير الأعظم السابق للباب العالي" وقد أرفقها كونت ببعض مؤلفاته الهامة المهداة لرشيد باشا .

تعرض كونت للتعاليم الإسلامية لا تعرض المتحمس ، أو المتحامل وإنما تعرض الدارس الباحث عن الحقيقة على ضوء الواقع التاريخى ، المجرد من كل نسبية ما أمكن ، واعتمد فى تخريجه لما درس على "فلسفة التاريخ" حيث إن "فلسفة التاريخ" توضح وضعية الإسلام فى العصور الوسطى بشكل سليم ، ويتجه كونت فى تخريجه إلى القول بمرحلية الانسانية فى التقدم عبر الأديان السماوية "فتعاليم المسيح (عليه السلام) تفوق تعاليم موسى" كما أن الحقبة الشرقية جاءت بتقدم حضارى أكمل يتمثل فى التعاليم الإسلامية وأصالتها وتمشيها مع الطبيعة البشرية وصيانة التراث الإنسانى حين المقارنة بالأوضاع والنظم الدينية المعاصرة ، إذ يلاحظ أن النظم الدينية الأخرى كان لها طابع انتقائى يتكيف أولا وقبل كل شئ بالتعاليم اللاهوتية ، بينما تكيف التعاليم

الإسلامية مع واقع الطبيعة الشرقية كان إيجابياً للغاية . لقد سهل الإسلام بتعاليمه الروحية هضم فكرة الوحدانية بعد أن ركز مفهومها ، وقال بسيطرتها وحدد أبعادها عقلياً ، وكان ذلك فى صورة بديعة خلاقة ، من الصعب قهرها ، لأنها أكثر كمالا ومنطقية ، وبالتالى اختصر الطريق فى الاتجاه إلى المرحلة الوضعية (أى العلمية) ... لقد كان فى شرح مفهوم الاجتماعى فى التعاليم الإسلامية على غيره وكان هذا من العوامل الأساسية التى أهلت لصلاحيته كدين اجتماعى عالمى ، يلتقى مع الوضعية لتحقيق دين الإنسانية ، لقد واجهت الإسلام قضايا اجتماعية هامة كغيره من الأديان ، فواجهها مواجهة واقعية محاولا الحد من سلبيتها ، وناقشها فى أسلوب صريح دون تردد (مثل قضية تعدد الزوجات وقضية الرق) لم يقل بالنصح المجرد ، بقدر ما حاول البحث عن حلول واقعية وسريعة تتناسب مع الطبيعة المعقدة لهذه الظاهرات فى مجتمعات العصور الوسطى ولم يغب عن كونت أن يشير إلى دور المفكر والفيلسوف الشرقى بخصوص التعرف على قضايا المجتمع وظاهراته المختلفة فيوضح عن طريق المقارنة ..." أن الشرق فى استطاعته تحاشى المرور بالمرحلة التى مر بها الغرب حينما اتجه هذا الأخير بطاقاته الفكرية والفلسفية لتفهم الطبقات الدنيا وتدعيمها أمام عجزه عن فهم ما يدور بخلد الطبقات العليا من نوايا وأهداف" ...وبالتالى يمكن للشرق الإسلامى أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (يعنى العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة إلى الهدف مختصراً الطريق بالقفز من الحالة الأولى (اللاهوتية) إلى الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيداً من تجارب الآخرين الذين وصلوا بالمجتمع الإنسانى فعلياً إلى هذه الحالة الثالثة ومتفهمين لنتائج التجارب العلاجية خصوصاً ما نجح منها فيما مضى بصورة علمية ملموسة "ولم يحد من نجاحها فى العصر الحديث إلا انصراف المسلمين ، لا الإسلام إلى أمور ثانوية (التعبير هنا حرفياً لكونت) شغلهم عن

تعميق تجاربهم الناجحة واستبعاد السلبى منها" ، بمعنى : "... تكييف التعاليم والمذاهب مع طبيعة العصر عن طريق الاجتهاد العلمى" فى حقيقة المجتمع ومقتضياته ومعطياته الحالية .

ويستمر كونت فى عرضه ، وتحليله للتعاليم الإسلامية ... "لقد سد الإسلام فراغاً كبيراً فى الميدان الاجتماعى بالنسبة لتطور الإنسانية ، وقدم الكثير لهذا التطور ... وفاق ما قدمته بيزنطة" ولقد ركزت "العبقرية الإسلامية" (التعبير لكونت) فيما مضى نشاطها فى "تنظيم المجتمع وحكمه ووجهته نحو العلوم والفنون وقدمت لنا نماذج رائعة من هذه العبقرية ... إن مدارس إشبيلية وقرطبة ، لأكبر دليل يساق خصوصاً حينما يقارن ذلك بما كان يشغل الغرب حينئذ من قضايا لاهوتية كهنوتية ..." ليس لها طبيعة التطلع العلمى ، هكذا اتجه كونت إلى تقديم الحوار المباشر والالتقاء بين الخالق والمخلوق ، دون وسيط عبر الإسلام ، تأكيداً عقلياً لأصالة تعاليمه وطابعها الوضعى . ولم تقل "براعة التعاليم الإسلامية ، فى ميدان التشريع وتحديد مفهوم السلطة ، ومحاولة تكيفها بما يتناسب وطبيعة التطور ، ويتمشى وأسس السياسة الوضعية ، عن غيره من الميادين وبخصوص هذا الموضوع يوضح كونت أولا .. أن الكل يشعر أن الخلط بين السلطات الروحية والدينية كان فيما مضى ضرورياً للغزو والفتح" .. وعلى ضوء دراسته لموضوع السلطات خصوصاً عند الرومان وموضوع فصل السلطات فى الغرب وما أحاط به من تحليل وبحث ، يرى كونت بعد ذلك ... أن السلطة الروحية وحدها أهلاً كى تضم تحت رايتها بفضل تعاليمها المشتركة أجناساً وعناصر مختلفة من البشر ، ومن ثم تتجه لتحمل السلطة الدنيوية فيما بعد بجدارة ... أما بالنسبة للإسلام فيقرر كونت ... أن الإسلام جاء ليؤكد السلطة للحاكم ويحقق للمجتمع الاستقرار عن طريق طاعته ... ومن الملاحظ أن كونت كمعلمه وأستاذه سان سيمون يميل إلى الحكم المستقر الذى يضمن

للمجتمع إمكانية التفتح على قضاياه الحقيقية ، لا شكلية الحكم وضياع عمر المجتمع في البحث عن لمن تكون السلطة ؟ ويستنفد في ذلك طاقاته الأساسية مادياً وفكرياً ، ويراد بالقضايا الحقيقية ، قضايا تطوره وتعمقه في المفاهيم الحضارية ، والتي حددها سان سيمون بالمعارف التقنية ، والتبحر في العلوم والتكيف مع النمو الصناعي . حتى السلطة في حد ذاتها تتجه ، مع تقدم المعارف التقنية ، والنمو الصناعي ، أكثر فأكثر إلى "إدارة الأشياء والتحكم فيها بدلا من التحكم في الأشخاص وإدارتهم أي حكم الأشياء والسيطرة عليها ، لا حكم الأفراد والسيطرة عليهم" وبالتالي لا تعد السلطة من حيث هي هدف وإنما مجرد وسيلة غايتها الأسمى إسعاد المجتمع بتحقيق الرفاهية له ، عن طريق التقدم التقني والصناعي ... ولقد بهر كونت بالجانب الاجتماعي في التعاليم الإسلامية ، هذه التعاليم التي لم تحد من فاعليتها الاتجاهات الكهنوتية التي عرفتها المجتمعات الأخرى في العصور الوسطى ، حيث إن الشكلية المسيطرة على التعاليم اللاهوتية في الغرب ، على حد تعبير كونت – حدت من فاعلية المثل المسيحية الأصيلة السامية بينما الإسلام تفتح عملياً على الأوضاع الاجتماعية وأعطى لها أهمية بالغة بل أعطى لها الصدارة . لقد تفوق المفهوم حكم تقريرى صحيح عن الإسلام ، بما في ذلك رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) حكم لا ينساق في موكب المتحمسين المؤيدين دون تعليل ، أو المفندين الناقدين دون حجة أو تحليل .

يحدد كونت حكمه "مؤكداً عدم مشاركته في الحملة المفتعلة ضد الإسلام في الغرب" ويقول : "إنى لم أعالج الروحانية الإسلامية في الشرق كما يجب ، وفي كل أبعادها وأعماقها ولذا لا أشارك في الحملة ضدها دون معرفة عميقة ..." هذه الحملة التي "وجدت من يستمع إليها حتى المفكر العملاق الكبير ديدرو ، "إن الحكم على الإسلام في الغرب لا

يخلو فى أغلب الأحيان من التعنت..." لقد حاول كونت على ضوء ما لديه من معلومات ، أن يقدم حكماً على تطور المجتمع الإسلامى ، فبينما يتحمس لمرحلته الأولى يتحفظ كثيراً على "التخريج الفارسى للإسلام" والاتجاه به نحو المفاهيم الفارسية الخاصة ، ونفس التحفظ والنقد نجده بالنسبة "للمرحلة العثمانية" (صداقته لرشيد باشا لم تحل دون نقده للعثمانيين) ، فـ"كونت" يرى "أن العثمانيين (الأتراك) رأوا فى الإسلام أولا وقبل كل شئ دين سيادة مع أن طبيعة روح الإسلام الأصيلة التسامح والمساواة (التعبيرات حرفياً لكونت) فالإسلام لا يسمح فقط بالتفريق بين الأجناس البشرية ، بل لا يسمح أيضاً بالتمييز بين السيد والمسود ، ولعل هذا ما ساعد على قيام إمبراطوريات إسلامية مزجت بين أجناس مختلفة من البشرية ، فكانت خير طلائع للدين العالمى ، فى شكل واقعى ملموس وليس مجرد دعوة إليه ... "ويميل كونت إلى القول بأن روح الإسلام لم تفهم فى البداية ، بل كان الحذر منها ، وبالتالى لم يحدث تفاعل إيجابى بين الأديان ، وحل بدلا من ذلك منذ البداية التطاحن ، فكان على مر القرون ... ورأى كونت أنه كان من الخير للمسيحية أن تترك الشرق للإسلام" وتتكامل الأديان كل فى نطاق وجوده وذلك فى سبيل "المصلحة المشتركة" وهى إسعاد الإنسانية وسموها فالشرق والغرب يبحثان عن الدين العالمى رغم عدم وحدة التاريخ بينهما ولكن يمكن لهذه الوحدة أن تتحقق عن طريق الفلسفة الوضعية . والإسلام من جانبه بوعيه الرفيع للقضايا الروحية ، فى طليعة المتجاوبين مع الفلسفة الوضعية والملتقى معها فى النهاية عبر الدين العالمى . هذا الدين العالمى الذى يفضل "الروحانية المخرجة على المادية التحليلية الغير ملتزمة بنظام تصور رصين . "ويؤكد كونت أن الإسلام دين قيادة وتطلع وليس بدين سيادة ساعدته فتوحاته وأفادته بقدر ما ساعدت وأفادت الآخرين فى النهوض عن طريق الاحتكاك به وبتعاليمه ... إن تطلع الإسلام نحو

العالمية يجعل من أرضه خير أرض للأفكار الوضعية ، والتجاوب معها ، بالتالى دون حاجة إلى المرور بمرحلة وسيطة وفترة انتقالية .

إن الإمبراطورية العالمية السامية التى دعا إلى اقامة دعائمها دين محمد صلى الله عليه وسلم بناء على الالتقاء والتكامل خيو ما يحيى تحقيقها هو الاتجاه الوضعى هكذا يكرر كونت الذى يرى فى محمد صلى الله عليه وسلم رائداً عريقاً من أسمى رواد الروحانية ومتعرفاً على الشئون الدنيوية أيضاً ، استطاع أن يكمل فى زمن بسيط ما لا يستطيع غيره اتمامه فى قرون طوال خصوصاً اتجاهه نحو العالمية فى العصور الوسطى عبر حلول معقولة ومقبولة ، ويتعمق عملاق السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية فى حكمه على محمد صلى الله عليه وسلم "وعبقرية الإسلام" فيؤكد كونت المكانة السامية للفكر والعقل فى المبادئ الإسلامية والتفهم السليم للمقدرة الإنسانية من خلال هذه المبادئ خصوصاً من الوجهة الاجتماعية وحين المقارنة بين الأديان المعاصرة للإسلام آنذاك فى العصور الوسطى ، حيث التعاليم اللاهوتية لها السيطرة وعلى العقل أن يستسلم أمامها فى أغلب الأحيان ، هذا العقل الذى ندر أن أحرج فى الإسلام بمعنوياته ومثله الرفيعة ... لقد اكتشف كونت فى مواقف كثيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم أروع صور الالتزام الوضعى والأصالة فى التخريج . لقد قدم محمد صلى الله عليه وسلم خير ما ترجوه الإنسانية من تعاليم سمحة ، أعطت الفرصة للبشرية كى تنقذ مصيرها على أحسن وجه ولا تضيع عمرها فى تجارب مؤلمة ، وعناد غير مجد ، هنا يشير كونت إلى رأى هام خاص بتعنت فئات اليهود التى رفضت دعوة الإسلام كشأنها فى رفض الدعوة المسيحية فيقول : "إن اليهود الرافضين بعد أن فقدوا الأمل الوحيد لهم كفئة مشردة جاء محمد العظيم (النعت بـ"عظيم" جاء على لسان كونت) ليتيح لهم الفرصة الطيبة للدخول فى حظيرة الدين على أن يسلموا به "رسولا منتظراً" كما جاء فى كتبهم السماوية .

ويحاول كونت أن يظهر طبيعة التكامل الدينى والسير به نحو الهدف الأسمى للإنسانية ، فى ظلال الوضعية (ويعادلها كما قلنا بالعلمية) فيبرز كمثال مفهوم الدين العالمى عند "سان بول" فى المسيحية ، ومفهوم العالمية فى الدين الإسلامى والتقاء الأديان فى هذا الطريق الصائب لإنقاذ البشرية ، ويكرر كونت خلاصة حكمه ، وموقفه من الإسلام كدين عالمى يلتقى مع الفلسفة الوضعية ، فى الأهداف والأسس ، محدداً عبقرية الإسلام ، من خلال هذه العبارات الأصيلة : "إن العبقرية الإسلامية قلما تتعارض مع الحدث النهائى ، للدين الوضعى العالمى ، حيث إنها تهدف دائماً إلى معرفة الحقيقة عبر اتجاهاتها العملية الملموسة وبواسطة معتقداتها المبسطة " .

هذا هو حكم أوجيست كونت ، وهكذا كان موقفه من الإسلام باختصار. كثيراً ما تركنا كونت يعبر هو عن موقفه بنفسه ، وبأسلوبه ، وذلك عن طريق التوسع فى استعمال نصوصه ، والاستشهاد بها ، ومن ثم نكون قد أعطينا للموضوعية حقها ، حين علاج هذه النواحى الدقيقة الخاصة بتقنين الأديان ، والحكم عليها ... لم نفصل موقف كونت من إنتاجه الفكرى بصفة عامة ، وبالتالى قدمنا "فكرة سريعة" عن كونت المفكر المنتج ، هذه الفكرة التى جرتنا بدورها إلى إعطاء نبذة تمهيدية عن كونت الإنسان الذى عاش ... بقى علينا أن نحدد ، إن جاز التحديد ، هل كان كونت صائباً فى حكمه ، وهل كان أصيلا فى موقفه من الإسلام ؟

إذا ما نظرنا إلى مصادر كونت المحدودة التى اعتمد عليها ليضع حيثيات حكمه ، وإذا ما قارنا حكمه بحكم معاصريه وسابقيه من المفكرين الأوروبيين ، الذين يفخرون بتكوينهم الوضعى ، وتقريرهم المنهجى ، فى القضايا العلمية ، نجد حكمه هذا ، قد جاء مصداقاً

لأصالته وتأكيداً جديداً على عمقه ، وبجدارته كعملاق من عمالقة السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية ، يفوق كثيراً معاصريه فى الالتزام بالموضوعية وعدم المشاركة فى التيارات المغرضة ضد الإسلام ، هذه التيارات التى حملت فى غمارها كثيراً من المفكرين ، ممن كان المفروض فيهم أن يكونوا رسلا للحقيقة العلمية المجردة عن الأهواء ، ومدافعين عن الأفكار الإنسانية والروحية السامية مهما كان أصل هذه الأفكار ومهما كانت جنسيتها ...

لا شك أن موقف كونت من الإسلام جاء بالكثير من التوضيحات (على سبيل المثال تمييزه بين الإسلام كمبادئ ، وبين المسلمين كمجتمع بشرى ، كذلك محاولته وجود نوع من الالتقاء بين فلسفته الوضعية وبين الإسلام على أنه اقرب النماذج الدينية إليها ، وإلى تحقيق العالمية ودين الإنسانية جمعاء ...) لم يتعرض كونت لجوهر الإسلام من زاوية القدسية والتنزيل ، وإنما اكتفى بالتعرض لمظاهره ومعطياته على ضوء مبادئه الأساسية ومقارنته بالأديان الأخرى المعاصرة له ، ومدى الالتقاء بالفلسفة الوضعية حسب تطور أحوال الذكاء الإنسانى . لم يخض كونت فى قدسيات الإسلام وبواطن الإيمان وإدراك السمعيات والغيبيات مما يستوجب إحاطة عميقة كاملة بالتوحيد والفقه وما حول ذلك من الإسلاميات ، وإنما اكتفى بما يعنيه وكان فى ذلك دقيقاً ، ومنهجياً بل "ووضعياً " حقاً بمعنى علمياً (إذا ما استعملنا تعبيراته والتزمنا بمعانيها) فالتعرض لكل أبعاد الإسلام يستلزم معرفة عريضة بتطور المذاهب الإسلامية ، وما عرفته من إشعاع فكرى على يد الفلاسفة المسلمين إلى جانب الإحاطة الشاملة بالتاريخ الاجتماعى للإسلام ، وأولا وقبل كل شئ التعرف على كنز الإسلام الروحى (نعنى : القرآن والسنة) وهذا ما كان ينقص كونت ولم يستطع رغم تطلعه استيفاءه فى كل أبعاده وإلا لكان من خيرة من درسوا الإسلام وقدروه بالتالى حق قدره .

وعلى الجملة فموقف كونت يمكن أن يؤخذ رغم أبعاده المحدودة ، المحددة من حيث الكم وإن كانت عميقة من حيث الكيف والأصالة كنموذج سليم صائب ، على الذين يلقون بأحكامهم جزافاً ، بل وفى شئ من التسرع من مدعى الالتزام بالتخريج المادى ، أن يقتدوا به فهو نموذج لم يقدمه مفكر دينى متحجر ، بل قدمه رائد الفلسفة الوضعية كونت ، ومن ثم على الملتزمين أن يستوعبوا قبل أن يحكموا ويهضموا قبل أن يخرجوا ويتجردوا حين الحكم من نعرتهم الذاتية ، وعصريتهم الفكرية العنيدة ، وبالتالى يسود "حكم الحقيقة" وتسيطر "روح التفهم العلمى المنهجى الأصيل" - وما أحوجنا إليه وإليها - دون تحمس أعمى ، أو نقد سطحى مفتعل .

وهكذا رأينا رائد الوضعية "أوجيست كونت" هذا العملاق الذى اتجه بوضعيته ليسمو بها متخذاً من الإسلام معياراً لما ارتآه كصلاحية للدين الذى يتمشى مع الحالة الوضعية وهى الحالة العلمية والأخيرة من أحواله الثلاثة فى النظرية العامة للتقدم ، لقد أغنى بمشاعره الفياضة باحثاً عن مخرج ومآل دون أن يتنكر لقدرات العقل أو ابداع الفكر وإننا بدورنا لنفخر بهذا العملاق الذى انتهى نهاية القادر والعارف بالإسلام مثلا أصيلة وشعائر مبسطة لما فيه إسعاد للإنسان والمجتمع على حد سواء دون إلغاء أو تنكر بين العلم والدين فكلاهما لازم لسمو الإنسان وتقدمه .

* * *

الفصل الخامس

كارل ماركس ونهاية عملاق

من أين نبدأ مع " كارل ماركس" ؟ وكيف ننتهى به ولا نقول ننهيه ، "كارل ماركس" ناقد الرأسمالية أم " كارل ماركس" فيلسوف الاستلاب أو " كارل ماركس" المناضل فى الساحات النقابية وحتى التنظيمات السرية ، كارل ماركس الصحفى أو الجامعى المنظر والباحث ، إنه ولا شك متعدد الجوانب بقدر ما له من المريدين بقدر ما يحسب له من الأعداء والخصوم ، شغل ومذهبه حيزاً وما زال يشغل ممثلا فى تيارات فكرية ومؤسسات نظمية يكفى كمثال الاتحاد السوفياتى والصين وما حولهما رغم ما بينهما من تباين فى التمذهب له أو تفسيره وتأويله إن كنا نترك كارل ماركس فى تفاصيله وتفصيلاته للبحث المتخصص والمتعمق ونكتفى هنا فى إطار نهاية العمالقة بعرض موجز يصوِّر لنا حياة الرجل إنساناً وفكراً وإنتاجاً لنصل به إلى نهايته كعملاق وكيف كانت ؟ : "كارل ماركس" (٥ مايو ١٨١٨ - ١٨٨٣) هو الطفل الثانى لإخوة ثمانية ولد فى "ترافس" بألمانيا وقبر فى لندن ، كان والده محامياً من أصل يهودى وجده كان رباناً رجل معبد وتحوَّل والده إلى البروتستانتية سنة ١٨١٦ ، أى قبل مولده بعامين كى يهرب من معاداة اليهود فى بروسيا بعد سقوط "نابليون". والذى يعنينا الابن كارل ماركس الذى نشاهده فى عام ١٨٣. تلميذاً فى إحدى ليسيهات "ترافس" بل يلاحظ أنه اختار كبحث لآداء الباكلوريا سنة ١٨٣٥ بعنوان : **"تأملات فتى مراهق أمام اختيار مهنته"** وفيها نجد قوله : علاقتنا مع المجتمع تبدأ قبل أن نبدأها ، وبرز فى هذه التأملات اتجاهاته إلى الاجتماعية . التحق بجامعة بون لدراسة الحقوق وكان أيضاً يدرس الفن بل ويكتب الشعر ، ومع الأحداث الأساسية لهذا الإنسان الذى هو "كارل ماركس" نقف مع عام ١٨٣٦

حيث خطب صديقة طفولته "جانى فون وست فالين" وهى من عائلة أرستقراطية بروسية قحة ووالدها كان مستشاراً فى مجلس الوصاية بل وأخاً لها هو "فيردناند" أصبح وزيراً للداخلية فى سنوات ١٨٥٠ وإن كنا أشرنا إلى هذه المعلومات الحميمية فالذى يدفعنا إلى ذلك تبيان الإطار الأسرى الأرستقراطى لهذا المناضل الشعبى المتكلم باسم الكادحين . وفى نفس العام ١٨٣٦ نشاهد كارل ماركس فى برلين ليكمل دراسته القانونية كما يتابع دراسة التاريخ والفلسفة وبصفة خاصة الهيجيلية التى كانت متصدرة فى جامعة برلين آنذاك وتتلمذ فى البداية على الهيجلى البروفسور "إدوارد جانز" كما صادق الإخوة "بويسر" و "برونو" و "إيدكار" وهما فلاسفة من اليسار الهيجلى ومن خلالهما جذب إلى الفلسفة وركز عليها وتستوقفنا رسالة خطها الشاب كارل ماركس إلى والده فى ١٠ نوفمبر ١٨٣٧ وفيها يعرض على والده رؤية لحياته المليئة بالاضطرابات بل وأيضاً يعرفه بقراءاته ورغبته فى أن ينتهى مع الفلسفة الهيجيلية وبعد عام توفى والده . وفى ١٨٣٩ بدأ فى تحضير أطروحته للدكتوراة واختار كموضوع عن الفلسفة "الأبيقورية" وكان يسعى للحصول على مقعد فى جامعة برلين كأستاذ كما أنه فى هذه الفترة اهتم بفلسفة "سبينوزا" و"لايبنيز" و "هيوم" و "كانط" ثم اتجه إلى جامعة "ڤيينا" ليناقش أطروحته فى إبريل ١٨٤١ واختار لها كعنوان : الفرق بين "ديموقريط" و "أبيقور" ، وغلبت عليه فى هذه الفترة النزعة المثالية ولكن كانت بداية الطريق بل والخطوات الأولى للبحث عن أرضية لفكر مادى ونقد للأديان بل كان الإلحاد موضع مناقشاته مع من تعامل معه من الفلاسفة آنذاك إلى جانب "بوسير" السابق الذكر أمثال "موزيس هس" ، وكان الجميع تحت تأثير أبحاث "فيورباخ" ، وأيضاً يلاحظ فى هذه الفترة وفى منطقة "رينانى" كانت المضاربات بين مختلف الفئات الاجتماعية ، تحالفات وتنكر للتحالفات ، برجوازيين ويساريين هيجيليين ومحاولات

لإصدار الصحف ، وخطا كارل ماركس الصحفى خطواته الأولى فى هذا الإطار بكتابات فى جريدة معارضة وهى "الكازيت دى رينان" الذى أصبح رئيساً لتحريرها فيما بعد ، وكانت مقالاته تعنون بحرية الصحافة بؤس العمال ويلاحظ فى هذه المقالات تطلعات ماركس المبدئية للبحث الاقتصادى ، ويدأ ماركس يعبر الجسر الممتد إلى باريس ، جسر الاشتراكيين المثاليين خصوصاً "سان سيمون" و "فورسيى" و "برودون" وإن كنا نرى فى تعبير مثالى لـ "سان سيمون" نوعاً من التجاوز فى هذا النعت لأن "سان سيمون" إن كان يعتبر مفكراً فى عصر الاشتراكية المثالية فهو أولى المثاليين واقعية هكذا وصفنا "سان سيمون" حينما قارناه بـ"كارل ماركس" فى مؤلفاتنا ، وبهذا المضمون إن كان سان سيمون أكثر المثاليين واقعية فكارل ماركس أكثر الواقعيين مثالية باعتبار أن "سان سيمون" عاش فى فترة الفكر الاشتراكى المثالى وكان واقعى النزعة بينما "كارل ماركس" تلاه فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى فترة واقعية الاشتراكية التى وصلت إلى حد الزعم بعلميتها فكان أكثر الواقعيين مثالية ، ونكتفى بهذا القدر فيما يخص سان سيمون لنعود إلى كارل ماركس وكيف تعامل مع التيارات السائدة مادية وديموقراطية ثورية إلى شيوعية ، واستمر فى نشر مقالاته فى "الكازيت" السابقة ناقداً للدولة البروسية وفى هذه الفترة كان أيضاً التكامل بين "كارل ماركس" و "انجلز" عبر الصداقة الأبدية التى جمعتهما وكان انجلز يكتب عن السياسة الاقتصادية فى إنجلترا .

وجاء عام ١٨٤٣ ليكون عام العرس لـ"كارل ماركس" لزواجه وبعد خطوبة طويلة مع "جينى وست فالن" الأرستقراطية فى الوقت الذى كانت المقالات التى يكتبها كارل ماركس تصادر ومعها تصادر صحفها وتلغى جريدة لتؤسس جريدة أخرى ، مرة فى ألمانيا وأخرى فى فرنسا ،

ولعل ما يستحق الإشارة فى هذا الخضم ما نشر فى الحوليات الفرنسية الألمانية والتى نشرت عدداً واحداً سنة ١٨٤٤ وكان يحمل عنوان **"المسألة اليهودية"** حيث عرض كارل ماركس أفكاره عن الصراع السياسى وركز فى تحفظاته على الدولة وعلى رأس المال كحواجز تحد من ارتقاء الإنسانية وكانت رحلته إلى باريس سنة ١٨٤٣ وعلاقته بالشاعر "أونريك هاينى" الشهير رفيقه فى رحلته ، وكانت له علاقات بالأوساط الثقافية والأدبية فى باريس ، والتحم كارل ماركس فى حياته الباريسية بالسانسيمونيين (أتباع سان سيمون) وبخاصة التيار اليسارى من "بيكر" حتى "كابى" مروراً بالعديد من أتباع "سان سيمون" ومن المتعاطفين مع الجمعيات السرية فى باريس حيث مارس "كارل ماركس" نشاط الصالونات المغلقة وسراديب الجماعات السرية من العدلاء والمشردين خصوصاً من كان منهم من المهاجرين الألمان فى باريس ، وهذه صفحة إن كان البعض من المتخصصين اهتم بها إلا أن جوانب أخرى ما زالت فى حاجة إلى المراجعة والكشف .

وفى هذه الفترة تبلورت أفكار "كارل ماركس" حول نقده لفلسفة القانون عند "هيجل" وهو ما يعرف بمخطوط ١٨٤٣ وبرزت حينئذ اتجاهاته بوضوح نحو الطبقة الكادحة ومعارضته الضمنية لـ"هيجل" واتضحت أكثر فأكثر هذه الرؤيا فى مخطوطات ١٨٤٤ "الأقتصاد السياسى والفلسفة" حيث تصدى "كارل ماركس" بالشرح والتحليل لـ"آدم سميث" و "جان باتيست سيه" و "ستوارت ميل" و "سيس موندى" ... ونضجت أيضاً رؤية هذا المفكر "كارل ماركس" حول "الالينة" أو الاستلاب فى مسيرة تحقيق الإنسان الكامل كذلك ما يعنى رأس المال وعلاقات الإنتاج وقواه ... والقيمة وفائض القيمة وتراكم رأس المال . إعادة لإنتاج رأس المال . الريع العقارى إلى آخره ... ويلاحظ فيما يعنى الإقامة الباريسية لـ"كارل ماركس" أن تعامله مع جماعة العدلاء والجمعيات

الشيوعية السرية وهى جماعات تأسست منذ ١٨٣٦ بين صفوف المهاجرين الألمان وكثيراً ما كانت هذه العلاقات لـ"كارل ماركس" تنتهى بالمشادات والمناقشات الحادة . كمثال مع "ريع" و "برودون" و "باكونين" ونشير بالمناسبة إلى علاقات أخرى ولكن إيجابية نمت بين "كارل ماركس" والرفيق الذى لم ينفصل عنه بعد ذلك رفيق العمر "انجلز" ونشر كتابه سنة ١٨٤٥ عن الوضعية الكادحة فى إنجلترا . ولقد دعمت العلاقات بينهما بالتعاون البحثى المشترك سواء فيما يعنى الأيديولوجية الألمانية أو ضد "بوبير" عن العائلة المقدسة" وتكوين المادية التاريخية ...الخ .

وفى فبراير ١٨٤٥ ترك كارل ماركس باريس إلى بروكسل وبقى فيها إلى سنة ١٨٤٨ وكان مهتماً بالدراسات الاقتصادية كما أن انجلز التحق به فى "بروكسل" فى إبريل ١٨٤٥ ومعاً وضعا أطروحة حول "فيورباخ" متجهين بها إلى المادية التاريخية فضلا عن ما أشرنا إليه من قبل كعمل مشترك يحمل عنوان "الأيديولوجية الألمانية" (سبتمبر ١٨٤٥ مايو ١٨٤٦) وتحتوى على مناقشات ضد أطروحات "بوبير" و "ستيرنير" أى ضد ما أطلقوا عليه "اشتراكية البرجوازية الصغيرة" وتعتبر أول محاورة فى المادية التاريخية التى عرفت على أنها النظرية العلمية لكل علم اجتماع ممكن ثم اتجها معاً إلى لندن وكانت فترة مراسلات مع الشيوعيين ومع "برودون" ثم كان أول اجتماع للجامعة الشيوعية "جامعة العدلاء" ذهب انجلز وبقى "ماركس" رئيس فرع بروكسل مؤسساً لجمعية العمال الألمان فى هذه المدينة كما انتخب نائباً للجمعية الديموقراطية ومع "انجلز" شارك فى المؤتمر الثانى بلندن للجامعة الشيوعية وهناك طلب منهما تحرير البيان الشيوعى (فبراير ١٨٤٨) أو بيان الحزب الشيوعى وهناك أيضاً وضع مؤلفه ضد "برودون" بعنوان "بؤس الفلاسفة" سنة ١٨٤٧ ويلاحظ بالنسبة للبيان الشيوعى أنه طرح الأفكار الرئيسية للصراع الطبقى

وأفكار ماركس عن المجتمع الجديد ومن المعروف أن فى هذه الفترة أيضاً (١٨٤٥ أو ما بعدها) تخلى ماركس عن الجنسية البروسية ، وفيما يعنى حياته الخاصة أنجب كارل ماركس بعد زواجه طفلان فى هذه الفترة أيضاً على التوالى : "لورا" التى أصبحت عاهرة (سبتمبر ١٨٤٥) وادجار (ديسمبر ١٨٤٦) ، ونعود بكارل ماركس إلى الأحداث فبعد قيام ثورة ١٨٤٨ بفرنسا طرد من بلجيكا ودعته الحكومة الفرنسية المؤقتة وكانت تحت تأثير "السانسيمونيين" إلى باريس ولكن سرعان ما رحل إلى ألمانيا (كولونيا) لنشر جريدة الجازيت الرينانية الجديدة وعمل رئيس تحرير لها وكانت أغلب المقالات عن الصراع فى ألمانيا وظهرت الجريدة سنة ١٨٤٨ واختفت بعد عام (مايو ١٨٤٩) بعد أن أوقفت وتمت متابعات لكارل ماركس لتهربه من الضرائب ثم طرد من ألمانيا وعاد إلى فرنسا التى طرد منها فى أغسطس ١٨٤٩ فرحل إلى لندن حيث استقر به المقام هناك باستثناء رحلات متقطعة هنا وهناك . وتكونت فى لندن جامعة العمال ومثل "ماركس" العمال الألمان ثم ظهر له الصراع الطبقى فى فرنسا عام ١٨٥. ومن ثم بدأت تتركز اهتماماته حول الاقتصاد أساساً ليبلور أطروحته عن رأس المال كمثال وكانت فترة حياته اللندنية آنذاك حافلة بالمتاعب والمعاناة وقد أنجب ثلاثة أطفال ماتوا صغاراً وعانى من ضيق ذات اليد رغم مساعدات "انجلز" له وبدأت تتقاسمه الأمراض خصوصاً الجلدية وظهور الدمامل فى كل مكان من جسده ومع هذا استمر فى العمل ولم ينقطع ، فظهر له الثامن عشر "بريمير لويس بونابرت" فى ١٨٥٢ خصوصا اهتم بالمراسلات الصحفية لـ"نيويورك تريبين" حيث كان يحلل لها سياسة بريطانيا كما كان يكتب فى جريدة الشعب فى بريطانيا وجرائد أخرى فضلا عن مراسلاته مع رئيسه "لاسال" فى ألمانيا وفى عام ١٨٥٥ ولدت له "يليانور" التى تزوجت فيما بعد المناضل الاشتراكى الإنجليزى "ايفلينج" (١٨٤٩ - ١٨٩٨) ولقد أثقل "كارل ماركس"

بالديون مع استمراره فى أبحاثه الاقتصادية وفى سنة ١٨٥٧ كان نقده للاقتصاد السياسى كما استمر فى كتابة المخطوطات التى نشرت فيما بعد (١٨٣٩ - ١٨٤١) كما أنه كانت له مراسلات كثيرة مع الأصدقاء والرفاق فى هذا التاريخ ونشرت هذه المراسلات بدورها فى الثلاثينيات من هذا القرن ، ودعى فى سنة ١٨٦٤ ليترأس الجمعية العامة للعمال الألمان وتوفى "لاسال" الذى كانت له معه صداقات كما كانت له معه مطاحنات وأسس بعد ذلك فى لندن الجمعية الدولية للعمال وانتصر من خلالها بأفكاره على "باكونين" الفوضوى وظهر له الكتاب الأول عن رأس المال عام ١٨٦٧ فى ألمانيا فى الف نسخة كما شوهد كارل ماركس فى سنة ١٨٦٩ عند ابنته "لورا" التى كانت قد تزوجت بالفرنسى "بول لافارغ" منذ عام (١٨٤٢ - ١٩١١) تاريخ انتحارهما معاً بالسم فى حفلات رأس العام ولقد كان "لافارغ" حتى انحساره من قادة الحزب الاشتراكى الفرنسى مثل "عنى سيد" ولقد تابع "كارل ماركس" فى سنة ١٨٧١ حركة "الكومين" آنذاك ومستمراً فى كتابه رأس المال الذى لم يكمل على أى حال وإن كان قد اهتم بترجمة الكتاب الأول عن رأس المال إلى الفرنسية سنة ١٨٧٥ وقد ساعد رفيقه انجلز فى كتابه "ده رنج" و"انتى ده رنج" ولاحقته الأمراض مكثفة فذهب للاستشفاء فى "كارلسباد" ثم نصح بالذهاب إلى الجزائر فذهب إليها علها تخفف من أمراضه الجلدية واستمر فى الاتصال بالاشتراكيين الفرنسيين وكتب لهم عن برنامج حزب العمال الفرنسى سنة ١٨٨٠ وتكالبت المصائب عليه فافتقد زوجته سنة ١٨٨١ بعد معاناة بسرطان الكبد كما افتقد ابنته "جينى" وكانت قد تزوجت بـ "شارل لونغى" (١٨٣٩ - ١٩٠٣) وانهار كارل ماركس وكانت نهاية عملاق التى سوف نركز عليها فيما تبقى من هذا الفصل الذى خصصناه له فى حوارنا المتواصل . انتهى عملاق فى ١٤ مارس ١٨٨٣ بعد أن ترك بصمات فى العديد من المواضيع

الاجتماعية التى تتصدر حالياً فى الماركسية كنقد الأيدولوجيات ، التركم ، الاستلاب ، أنماط الإنتاج ، أزمة الجدلية ، ديكتاتورية البروليتارية ، الاقتصاد السياسى ، وعى العمال ، الدولة ، الإنتاج الإقطاعى ، قوة العمل الإمبريالية ، الصراع الطبقى ، المادية الجدلية ، فائض القيمة ، الربح ، نقد الاقتصاد ، ثورة الكادحين ... إلى غير ذلك من المواضيع التى تحولت إلى شعارات تبث هنا وهناك باسم الماركسية أو عبر قنوات المتمركسين ، ولعل خير ما يرجع إليه لمعرفة كل ما كتب عن ماركس والماركسية فى إطار بحث جاد هو مرجع "رى بيل" بعنوان "انتاج كارل ماركس" وظهر فى سنة.١٩٦ فى باريس إلى جانب ما قدمناه من دراسات بالفرنسية عن أصول الماركسية وقدمه غيرنا من المتخصصين فى الماركسيولوجيا أو المناضلين باسمها أو المتمركسين المتعاطفين معها أو المفندين لها بطريقة ضمنية أو بكل وضوح وقناعات فكرية ويبقى لنا نهاية عملاق وسوف نحاول من خلالها أن نطرح ما بين السطور عن هذا الرجل الذى لا يقل الجانب الخفى من شخصيته أهمية عن الجانب المعلن . وقد وضحنا هذا الجانب ما أمكن فى إطار موضوعى وبقى علينا قبل أن نؤهل نهاية عملاق أن نقدم وبموضوعية ما أمكن خفايا هذا العملاق لا كما تصورناها أو تأملناها ولكن كما قدمتها وثائق وشهد شاهد من أهله : الأستاذة الجامعية "فرانسواز ليفى" والتى تحمل عنوان "كارل ماركس تاريخ بورجوازى ألمانى" وهى أستاذة لعلم الاجتماع حين كتابة هذا الكتاب وبجامعة "بيزانسون" بفرنسا مختصة بالاجتماع الحضرى ونشر مؤلفها هذا فى سنة ١٩٧٦ وهى فى عرضها بدورها لم تقدم انطباعات وتأملات لهذا البرجوازى الألمانى وإنما تركت وثائقه ومراسلاته تتحدث عن نفسها وكما خطتها يداه . فماذا عن خفايا هذا العملاق ونهايته ؟ وحينما نقول خفايا لا نقصد بذلك إفشاء الأسرار فهى لم تعد أسراراً بعد نشرها وبعد أن قرأتها الملايين ويبقى للقارئ العربى حقه فى

أن يتعرف وكحد أدنى على الأقل على بعض ملامحها فكارل ماركس العملاق ليس ملكاً لنفسه ولكنه كتراث تاريخى يعنى المتعاطفين معه والمحبين كما يعنى بالضرورة المتواجهين معه والمتخاصمين ، ولكن من أين نبدأ مع هذا الجانب لكارل ماركس لنصل به إلى النهاية ؟ أمن طفولته فى سنواته الست الأولى حينما تحوّلت الأسرة ممثلة فى الأم إلى البروتستانية بعد أن كانت تخشى من والدها اليهودى المتنكر لعقيدته أو حينما تحول "اونريش" والده إلى البروتستانتية قبل مولده بعام من اليهودية ؟ أو نبدأ به حينما عشق ملكة جمال "ترافس" الفاتنة "جينى وست فالن" ؟

من أين نبدأ ؟ سوف نسترسل بالتركيز على أحداث تبرز نفسها متميزة لما فيها من خصوصيات فيلاحظ - ونعطى على سبيل المثال لا الحصر - موقفه و "انجلز" من اليهودية فى مراسلاته الخاصة ، إلى جانب دراسته المعروفة بعنوان المسألة اليهودية حيث يسخر مخاطباً "لاسال" بأنه "ولد من الزنوج الذين لحقوا بموسى حين رحيله لمصر وكثيراً ما كان يظهر الاحتقار لأصوله اليهودية بل وتنكره لها . كذلك يلاحظ عليه كسلوك فى موقفه من الأحداث سواء فى ذلك أحداث ١٨٤٨ فى فرنسا وكيف أنه كثيراً ما يظهر عكس ما يضمر ويتبنى مبدأ السلامة ولو على حساب التنكر للموقع حتى فيما يعنى موقفه من وحدة ألمانيا حيث يقول عن "بسمارك" : إن الإمبراطورية تحققت لا بطرقنا ولا بوسائلنا ولكنها تحققت فى أعماقنا حيث يعبر عن ميوله البرجوازية ، كذلك فيما يعنى موقفه من الاستعمار حين أعلن "باكونين" نقده لهذا الاستعمار وما يحدث فى الولايات المتحدة الامريكية من استعباد وسخرة لأبناء الأرض فاتخذ "كارل ماركس" من المستعمرين موقفاً يدعو إلى الاستفهام وهو أنهم ما جاءوا إلى أرض الولايات المتحدة إلا ليحضروها لا أن يتركوها مستنقعاً للكسالى والخاملين ، وهذا يلفت النظر من داعية الكادحين

ومنقذ المستضعفين ، بل كثيراً ما طرح الدارسون لسلوكه وبصفة خاصة "فرانسواز ليفى" فى دراستها التى أشرنا إليها سالفاً وتحمل عنوان "تاريخ بورجوازى ألمانى" حيث تشير فى صفحة ٣٥٧ حيث أشير من بين الاتهامات التى كانت تتوجه له اتهامه بالتجسس وعلاقته المشبوهة بالكولونيل "بانجيا" الذى يعمل لحساب الحكومة البروسية كما أنها أشارت فى كل من صفحة (٤٩ - ١١٣ - ١٥٢) إلى ما أسلفنا ذكره موضحة فى صفحة ١٧٦ حياته فى إنجلترا من ١٨٥٠ وصورت لنا هذه الحياة وما كان يكتنفها بالنسبة لزوجته من معاناة نظراً لأنهم كانوا يعيشون فى حى الباغيات "سوهو" حيث أيضاً التعايش مع الكوليرا والفقر المدقع فى غرفتين صغيرتين مع الأطفال والخادمة التى حملت سفاحاً من "كارل ماركس" وسنعود إلى هذا الموضوع فى الأسطر التالية بعد أن نشير وباختصار إلى علاقات كارل ماركس بأصدقائه التى كان دائماً طابعها الوفاق فى البداية ثم تتحول إلى تنكر وعداء سواء فى ذلك مع "باكونين" والمشاحنات المستمرة بينه وبين "ماركس" وقضية ترجمة رأس المال للروسية وكيف أنه عزز "باكونين" وأخذ وثيقة عليه أن يرد أموالا فى مقابل الترجمة ثم استغل هذه الوثيقة ضده ، كذلك علاقته مع "برودون" بين "بؤس الفلاسفة" و "فلاسفة البؤس" وعلاقته مع "لاسال" وكيف أنه كان يرى أن "لاسال" - وكثيراً ما كان يجامله حين زيارته لألمانيا - قد كلفه الكثير من السلف والاستدانة ليستضيفه لديه فى إنجلترا سنة ١٨٦٢. وأيضاً نشير إلى علاقاته مع المهاجرين الألمان وما صاحبها فى الجمعيات السرية والرابطة الشيوعية من أزمات ومضاربات وتحالف وفك للتحالف وتعاون وتآمر فضلا عن ما كان بينه وبين "ويلشى" ممثل المهاجرين الألمان من خصومات انتهت بدعوته لـ "ماركس" لكى يبارزه .. إلى غير ذلك من العلاقات التى كثيراً ما تستغل لكى تبرز طابع التنكر والنفعية عند "كارل ماركس" حين مهاجمته من خصومه أو المنقبين له على الفضائح ، وهنا نصل إلى جانب

له حساسية وهو العلاقات الحميمية لهذا الرجل التى لم تعد حالياً ملكاً له نظراً لشخصيته العامة التى أصبحت ملكاً لكل الباحثين وهنا لا يمكن حين طرحها أن ترى بمعيار التشفى أو النيل فهو أولا وقبل كل شئ بشر له الجوانب الإيجابية كما أنه غير منزه عن الأخطاء وليس له طابع العصمة فـ"كارل ماركس" الذين كثيراً ما طرح المتخصصون فى سيرته بعض الممرات المظلمة ليسلطوا عليها الأضواء فى سلوكه مثل قضية الاختلاس لأموال الفقراء واتهامه لسرقتها وما أثارته هذه من آصداء فى الصحف الإنجليزية والألمانية سنة ١٨٧١ وأشارت إليها "فرانسواز ليفى" (صفحة ١٨٤) وأيضاً ما قام به من أعمال تجارية مشبوهة من مشاركته مع "موسى" فى شركة للطباعة وما صاحب ذلك من اختلاسات وأشارت إلى ذلك أيضا "فرانسواز ليفى" (صفحة ٢٠٤) .

ويقودنا الحوار وفى إطار العلاقات الحميمية لهذا المفكر العملاق الذى لم يعد ملكاً لذاته وإنما شخصية عامة يتساءل حولها الجميع إلى علاقته بهذا الأرستقراطية "جينى البارونة فون وست فالن" وتوجت بالزواج رغم أنها تكبره بأربعة أعوام وكيف أنها كانت تتمتع بالجمال والأناقة ، هذه الأرستقراطية التى تنتسب إلى أعرق العائلات البروسية تزوجت به مسيحياً فى الكنيسة فى الوقت الذى كان يكتب فيه عن المسألة اليهودية سنة ١٨٤٣ وأنجبت منه العديد من الأطفال مات أربعة منهم فى سن مبكرة وبقيت ثلاث بنات وألحقت بها من أسرته خادمة تساعدها حينما كانت فى بروكسل وانتقلت مع الأسرة إلى إنجلترا وهى "هيلين لانشين" لقد كانت هذه الخادمة مسيطرة على منزل "ماركس" وكانت على علاقة حميمية معه وأنجبت منه طفلا غير شرعى وكانت تخشاها زوجته ، ومن الغريب أن هذه العلاقة كانت فى فترة المعاناة حيث البؤس والديون والمتابعات والتبديدات والحجز والرهن ، وتحولت الأميرة البروسية "جينى" إلى هذه المرأة التى وصفت بـ"جينى الحمراء" فى كتاب وضعه "بيترس"

عنها بالألمانية ليوضح فيه قناعتها بالنضال وأنها قريبة الشبه فى موقعها من زوجها كموقع "مارتا" من "فرويد" زوجته حيث وصل بها الوفاء الكامل لأن ترقع له الملابس والجوارب وقبلت كل صنوف المعاناة سواء حين السكن فى شارع "دين" حى "سوهو" حى الباغيات ، ومع هذا كان غريباً أن هذه البارونة لا تكن التقدير لامرأة مناضلة حقاً وهى هذه العاملة الأيرلندية التى كانت تشارك "انجلز" الصديق الحميم والذى تبقى لـ"ماركس" من بين أصدقائه وفياً حتى النهاية كانت تحتقر هذه العاملة مما يلفت النظر ويدعو إلى الاستفهام هل فى هذا الاحتقار تكريما لـ "انجلز" أم إشفاقاً عليه أم شعورها أن هناك نضال ونضال ؟ ، نضال الأرستقراطيين ونضال الفقراء . وكثيرا ما رفضت هذه الأرستقراطية أن تعود ببناتها ليختلطوا بالنبلاء بل اختارت لهم حياة الفقر بين الفقراء .

وكم تبدو حزينة ومأساوية نهاية هذا العملاق كجسد وكأسرة رغم ما يغطيه حالياً من مساحات شاسعة فى الكون بضوضاء فكره وأصدائه ، لقد تضاعفت المأساة فى السنوات الأخيرة وزحف المرض إلى الأسرة ليتعايش مع الفقر ، فكان مرض "جينى" بسرطان الكبد ورحلت وهى فى السابعة والستين من عمرها ودفنت فى "هاى كات" بقسم المجهولين فلم يستطع "كارل ماركس" أن يصاحبها فى رحلتها الأخيرة إلى القبر فقد كان بدوره يعانى من تكثف الأمراض وتنوعها وحصارها له فأضيف إلى مرض الجهاز الهضمى المزمن والكبد أمراضاً فى العيون والأذن والأسنان ومنذ سنة ١٨٦٨ حتى وفاته تدمل جسد "كارل ماركس" واحتار الأطباء فى تحديد أسباب هذه الدمامل والتقيح الذى عم جلده وكان يسبب له آلاماً مريرة وهذا ما دفعه إلى أن يرحل إلى الاستشفاء بالجزائر ولكن العلاج لم يفلح وتكثفت المعاناة التى لم تمكنه حتى من مصاحبة زوجته إلى قبرها وصاحبها "انجلز" مودعاً لها بكلمات وهى ثوى التراب . هذه الزوجة التى كتبت فى لحظاتها الأخيرة إلى زوج ابنتها قائلة

(كما جاء فى مؤلف بيترس الهام بعنوان جينى الحمراء) : "لو أنه خير لى أن أعيش مرة أخرى لما تزوجت أبداً" وانتهى كارل ماركس بدوره عام ١٨٨٣ . بعد أن مارس حتى فى اختياراته ارتداداً مقنعاً وبخاصة فى موقفه من الإله والإلحاد والبلنكيين والبابا وتأكيده أنه لم يسع إلى إنكار الإله بقدر سعيه إلى تحرير الإنسان ، ودفن فى لندن تاركاً من بعده كأب فتيات ثلاث .

إن كانت "جينى" الإبنة رحلت بعد وفاته بدورها إلى قبرها فى صمت فـ"لورا" وكذا "اليانور" رحلتا منتحرتان وإحداهما اختارت لذلك مع زوجها فى حفلات أعياد رأس العام ، إنها نهاية عملاق بقدر ما قدم من فكر بقدر ما طرح العديد من تساؤلات ، هذا الذى كثيراً ما يوصف مقارنا بـ"برودون" المفكر الفرنسى الاجتماعى الكبير أنه إن كان "برودون" يمثل البورجوازية الفرنسية الصغيرة فـ"كارل ماركس" بدوره هو ممثل البورجوازية الصغيرة الألمانية بحياته كإنسان وفى علاقاته وسلوكياته وبالتالى لا يمكن أن يفصل المفكر العملاق فى نهايته كإنسان . ويستمر بنا الحوار .

* * *

الفصل السادس

سبنسر والتطورية الداروينية ونهاية عملاق

"هربرت سبنسر" هذا الفيلسوف البريطانى المولود فى "دربى" سنة ١٨٢. والمتوفى فى ""بريكتون" (ديسمبر ١٩.٣) ، هذا المفكر العملاق دون شك ، كرس حياته برمتها للإنتاج الفكرى والتأليف بعد محاولات محدودة فى الأعمال الأخرى كامتهانه للعمل فى السكك الحديدية ، وعمله فى الصحافة ، ومع هذا بقى المعمر العملاق أولا وقبل كل شئ مفكراً و مؤلفاً استطاع أن يترك بصمات واتجاهات تذكره من بعده كأحد دعائم النظرية التطورية ومحاولة تطبيقها على المجتمعات البشرية بعد أن طبقها "داروين" فى إطار الانتقاء الطبيعى وحتمية الصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح .

هذا المفكر نشأ فى أسرة تحترف مهنة التعليم - والده وعمه كانا معلمان فى المدارس - سهر أبوه وعمه على تربيته فى طفولته وكان من البداية يعانى من ظروف صحية صعبة واضحة المعالم بل تركت بصمات على مسيرة حياته ورغم هذا تجاوز بهذا الجسد المنهك الضعيف الثمانين . رفض "سبنسر" الذهاب إلى الجامعة بل ورفض أن يعمل فى أى عمل كان ، بل يلاحظ مسلسل القناعة برفضه وعدم تقبله لأى ارتباط حتى بعد أن انتشر صيته ، أو أى لقب أو تشريف بل حياته الخاصة بدورها عانت معه من هذه الانفرادية الرهيبة . لقد قرر أن يكون حراً وحتى النهاية ... فلم يرتبط ، بل لم يفكر فى أى ارتباط بزوجة أو رفيقة حياة ، وإن كان فى شيخوخته شعر بقصوره ولامست أفكاره ذكريات الوحدة والانعزال بل ذهب فى بداية حياته إلى حد التوهم من أن الثقافة قد تلحق قيوداً بحريته ، فكان يقلل من قراءاته وعمل فى الصحافة منذ ١٨٤٢ أى وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وكانت كتاباته الأولى عن **"حدود سلطة الدولة"** ثم تحت تأثير قراءاته **لنسق ستوارت ميل المنطقى**

اتجه به إلى الميتافيزيقا كما أن قراءته لـ "كانط" افرزت **ملاحظات حول عاطفة الجمال والتسامى** واضطرته الظروف أن يعمل كمهندس فى السكك الحديدية ولكن لقليل من الوقت ، كما عمل محرراً فى **"الاقتصادى"** ونجده فى لندن (١٨٥٢ ومن ١٨٥٣) تفرغ لتأملاته وكان يعتقد أن له **رسالة** وهى أن يشرح كنه الكون ويفسر العالم معتمداً على العقل ، وعلى العلم ، وربما أزماته الصحية وتكالب الأمراض عليه ، واصاباته المتكررة بالوهن جعلته فى أزمة من الأزمات يقرر أن يكتشف قانون الكون أو **المبادئ الأساسية له** فى عدة أجزاء واستمر بعد أن وضع مخططاً لذلك زهاء ستة وثلاثين سنة ، لكى يحقق هذه الغاية بل هذه الرسالة بصحة متآكلة وإفلاس مادى مكثف ، وربما هذا الأمريكى المعجب "إدوارد يومانس" لعب دوراً فى مساعدته بل وحتى نشر أفكاره ، فمن المعروف أن أفكاره قد عرفت طريق الانتشار فى أمريكا قبل أن تعرفها فى موطنه إنجلترا وحتى سنة ١٨٧. كان "يومانس" هو الساهر على نشر أفكاره . وقد عين مديراً لجامعة ، ولكنه سريعاً ما قدم استقالته ... ولقد عرف أيضاً مفكرنا لحظات الوحدة وكانت تسليته الوحيدة المشى فى حجرته .

أنتج "سبنسر" وأنتج ، وتداخل فى تخصصات ثلاثة واضعاً لها مبادئ وأسس وهى **"البيولوجيا" و "السوسيولوجيا" و "السيكولوجيا"** فضلا عن الأخلاق ، وكثيراً ما كان يستعمل معلوماته فى تخصص ليوظفها فى الآخر ، ومع هذا اتجه فى افكاره السوسيولوجية وتحت شعار الحرية التى يقدسها إلى ما يشبه الحتمية البيولوجية ، حينما قاس المجتمعات البشرية كجسد بيولوجى أفراده هم خلاياه ، يخضع للنشوء والارتقاء وحتمية الصراع لبقاء الأصلح دون ألا يكون عنصرى النزعة أو يهدف إلى ذلك كما كان الحال مع "غوبينو" واضع نظرية **"عدم تعادل الأجناس البشرية"** بنزعته العنصرية ، بل اتجه "سبنسر" إلى القول بأن المجتمعات البشرية يمكن أن تتطور دون تدخل مشرع بقوانينها الطبيعية ،

ولا شك أنه كأحد رواد الفكر الوضعى فيلسوفاً تطورياً متميزاً انعكست أصداء نظريته فى مختلف الأجواء بما فى ذلك من تأثروا به فى وطننا العربى ، أو التقوا به كما يذكر الإمام محمد عبده ، وتابع لـ "أوجيست كونت" أوصى به "سبنسر" هو محمد مظهر أو ترجموا أفكاره التطورية كـ "شبلى شميل" تحت عنوان **النشوء والارتقاء** ، جال "سبنسر" ومارس الترحال فى أوروبا وأمريكا وآسيا وإفريقيا كما سنرى محاولا الالتحام بالحياة والتعامل معها فى عين المكان مطبقاً فى مسيرته الفكرية للتسلسل فى الظواهر من الأبسط إلى الأعقد ومن المتجانس إلى المتنوع .

انطلق فى نظريته متأثرا بـ "داروين" كما تأثر بـ "مرجان" الأنثروبولوجى الشهير ولكنه تجاوز فى أصالته لتطبيق التطورية موقع الإقلاع الداروينى رغم ما يحف الداروينية من إشهار وإعلان .

هذا "سبنسر" الذى قدم لنا سيرته أولا بأول ونشرت فى مجلدين سنة ١٩٠٤ بعد وفاته بعام ، وترجمت للعديد من اللغات بما فى ذلك اللغة الفرنسية أولا فى سنة ١٩٠٧ ثم أعيدت ترجمتها ملخصة أو مفصلة وأصبحت وثيقة هامة تكشف لنا العديد من خفايا هذا العملاق كما أظهرها بنفسه .

"سبنسر" صاحب المبادئ الأساسية وواضع مبادئ علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاجتماع الوصفى ، فى عدة مجلدات أيضاً ، هذا الجوّال الذى كان رغم تعشقه لوحدته وتعلقه بحريته يخالط المفكرين ويسعد بالتعرف عليهم من "هكسلى" إلى "ستوارت ميل" مروراً بـ"داروين" و "أوجست كونت" بل نجد فى دراسة نشرت فى مجلة العالمين (فبراير ١٨٧١) يعلن أنه ليس فقط متأثراً بـ"كونت" وإنما هو من أتباع "سان سيمون" كما تعرف على البيولوجى الألمانى "وايزمن" وحتى "ايليوت" حتى الأخلاقيات حاول أن يضع لها مبادئ فى ١٨٧٩

و"التربية" و "عبقرية العلم" إلى جانب كتابات ودراسات فى مختلف دروب المعرفة حتى "الطب القديم" والأديان الأولى والمراسلات المتعددة التى جمعت ونشرت إلى جانب مؤلفاته ، إنه فى كلمة واحدة منجم للفكر حافل بمختلف العطاءات .

سنحاول أن نتتبع - قبل أن نصل بهذا العملاق إلى نهايته - مراحل حياته خصوصاً عبر مقنعاتها وخلفياتها لنتعرف على حسه المعمق كل هذا لأنه لم يغفل دقائق حياته حين عرضها لنا بصراحة متميزة فى مؤلفه الهام الذى أشرنا إليه سلفاً بعنوان "سيرة حياتى" فى مجلدين نجده فى ص ١٧٢ حينما يعرفنا بعلاقاته بالمفكر الإنجليزى المحبب لدينا لموقفه من الإسلام "كارلايل" يذكر لنا بالمناسبة وهو فى الواحدة والثلاثين من عمره أن عزوبته تشغله وأنه ما زال حتى هذا السن بدون زواج كما يتكلم عن السكان ومناهج التربية والعزلة فى الريف ، وأنه رغم النصائح التى تقدم له للزواج ما زال يفكر وأنه فى انتظار ذلك وطد العلاقة بـ"أوجست كونت" و "لوى بلان" الذى كان من قواد أحداث فرنسا فى سنة ١٨٤٨ وبقية السانسيمونيين ورحل إلى "باريس" زائراً لـ"فكتور هوجو" كما زار "أوجست كونت" بل أعلن فيما بعد أنه من أتباع سان سيمون كما أشرنا ، ومن الغريب أنه رغم اعتزازه بعزوبيته يتكلم بإطناب عن الأطفال وملاحظته لهم واختياراته لتربيتهم ، وأنه يميل إلى الملاحظة الهادئة للعقل أكثر من ميله إلى اكتشاف عدوانيته وخطط لفلسفة قياسية فى ١٠ مجلدات ، وأرسل إلى "داروين" نسخة من محاولته ولكننا نجده فى ص ٢٧٣ من سيرته يوضح لنا الفوارق بين منظوره ومنظور "داروين" وأن القانون الأساسى لديه كما تصوره فى سنة ١٨٥٩ أوسع بكثير وأعم من قانون "داروين" كما أشار إلى نقد "ستوارت ميل" له .

واستمر "سبنسر" فى إنتاجه الغزير مصوراً لنا فى سيرته هذه العديد من التأملات التى تكمل هذا النتاج بل وتفسره . ومع هذا لم يشغله

الحديث فى سيرته عما ينتج بالحديث عما يعانيه خصوصاً "المورفين" وما أدراك ما هو ، وكيف أن تعاطيه كان يملى عليه أحلاماً أشار إليها ورحل عن جسده بجسده إلى إيطاليا وسويسرا كما رحل بفكره من البيولوجيا إلى السوسيولوجيا وسار فى ترحاله جسداً أو فكراً ليستقر لفترة وجيزة زائراً ومصاحباً للفراعنة (١٨٧٩ - ١٨٨٠) ولم يغفل أن يشير إلينا فى سيرته وما كتبه فى هذه الفترة عن علاقة الفكر بالمخ وأثر الغذاء فى ترجيه المخ . كما تحدث عن رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعن مشاعره النفسية وتعاطفه مع الأطفال بل ورأيه فى البعث واشارته إلى أن أصالة الحضارات فى ماضيها الشرقى ، وفى ص ٥١٩ من سيرته (حسب ترجمتها الفرنسية فى سنة ١٩٠٧) صرح بإدمانه للأفيون وأن الأرق قد استقر لديه وقرر مشاركته فيما تبقى من حياته . إنه يعلن معاناته من الأرق الرهيب الذى حرمه من نعمة النوم منذ عشرة أعوام حيث يقول : "منذ ١٨٨٢ قررت ألا أخرج أبداً للسهر وأن أنعزل"، بل حتى حينما استدعى فى البلاط الملكى لينصب فى أرقى المسؤوليات الأكاديمية أعلن شكره لهذا التكريم وفى نفس الوقت اعتذاره عنه .

غريب أمر هذا الرجل الذى مارس الحرية قولا وفعلا واتخذ من أعماقه ساحة لاعلان هموم الانسان .

إنه "هربرت سبنسر" الذى رغم وراثته لثروة كبرى فى نهاية عمره من عمه "وليم" بعد أن آلت إليه لم تغير هذه الثروة من سلوكه فى شئ . بل يلاحظ أنه أسس جماعة المساهمين فى لندن وهى جماعة يعنى بها لا للهروب من الضرائب وأنها المساهمين عن دفع الضرائب ، يذكر لنا "هربرت سبنسر" فى ص ٥٢٨ من الترجمة الفرنسية نصاً "إن ما يحزنه فى شيخوخته الآن شعوره بأن الزمن قد سرقه وأن الانتاج الفكرى قد غطى عليه جوانب أغفلها والآن يشعر بحرمانه منها" . يذكر "سبنسر" : أنه كم سيكون سعيداً لو أنه بجانبه زوجته وأطفاله إلى جانب انتاجه ،

ولكن هذا يعنى التعامل مع المستحيل فما تفرغ له ليملأ به عمراً أفرغ حياته من الزواج ، بل يعلن وبنزاهة منقطعة النظير أنه كيف كان يمكنه أن يتزوج فى وقت الزواج المناسب وهو آنذاك ما كان يملك الكفاف فمن باب أولى كيف يعول أسرة إن لم يغذيها بالمشاركة معه فى البؤس والحرمان ... ويضيف : "وحينما أقبلت الدنيا كان الوقت متأخراً ، ثم يعطى بعض الحيثيات ليبرر بل وربما ليخفف من معاناته فى أعماقه حين يؤكد أن الحياة المشتركة كثيراً ما تعنى ضياع الوقت فى المنازعات والتطاحن وعلى أتفه الأسباب ، وليس فى عمره فائض لذلك ، ومع هذا فالعمر فى طريقه إلى الانحدار . ويسترسل "سبنسر" فى قوله :" إن ما ألفه من نتاج أعطى له بعض القناعات أن حياته لم تذهب هدراً وأنه رضى كل الرضا عما أنتج" ويلاحظ أن الشيخوخة أملت معطياتها فى أفكاره مما جعله يتأمل فيها بدوره ، وكيف أن الشيخوخة تملى سلوكاً بل وتغييراً فى الأفكار يشعر به وبوضوح .

وفى ص ٥٣٨ من سيرة حياته يطالعنا "سبنسر" بهذا التأمل العميق فى الكون وفى أسراره حين يقول نصاً : "لو نظرنا فى هذا الكون وما فيه من أسرار حملتها لنا ملايين السنين وسوف تحملها ملايين من السنين مستقبلا لوجدناها تؤكد لنا أن الغموض الذى يكتنف علة هذا الكون **لا يمكن لمفكر إلا أن يسلم وبنزاهة أن ما أعطى من فكر يظل عاجزاً عن تفسير هذا الغموض بل هذا الخلود** ، فاستيعاب الذكاء البشرى محدود وقاصر أمام هذا التحدى اللهم إلا إذا لجأ المفكر إلى التسلط والديكتاتورية فى فكره كى يغطى هذا القصور".

ويضيف فى نفس الصفحة ٥٣٨ : "إن القضية الكبرى تظل دائماً هى مصيرنا بعد الموت فهل توقف المادة يعنى توقف الفكر ورحيله إنه الغموض ثم إننى - هكذا يؤكد سبنسر - أنظر إلى الدين فى هذا السن من شيخوختى ، وفى نهاية المطاف نظرة التعاطف الذى يساعد العقل

على الفهم والتفهم وإن لم يصل إلى شئ محدد ، ومع هذا لا أقبل شخصياً الحلول المقترحة من رجال الدين ، وأملى - يشير سبنسر ص ٥٣٩ - أن يوجد حل لذلك فى المستقبل .

لقد اشتد المرض على مفكرنا العملاق وهو فيما حول السبعين من عمره وأوقف مؤقتاً سيرة حياته ليعود إلى كتابتها بعد أن استعاد قوته مشيراً إلى أنه سوف يكملها حينما لا يجد شيئاً آخر يفعله . هذا العملاق الذى ترك لنا نتاجاً عريضاً واسعاً متشعباً غطى من المبادئ العديد من التخصصات ما هو جدير بالإشارة والتنويه **كالمبادئ الأخلاقية ، وفى التربية ، وفى السوسيولوجيا** الوصفية فى عدة مجلدات **وعبقرية العلم** ودراسات أخرى فى مختلف دروب المعرفة ومراسلات هنا وهناك ، بما فى ذلك كما أشرنا ما كتبه عن مبادئ **السيكولوجيا ، والبيولوجيا ، والسوسيولوجيا** ، والأديان ، والطب القديم ... مؤلفات رئيسية ونوعية شقت طريقها كما شقت له الطريق إلى الشهرة والتعريف فى أرضه وخارج أرضه واقترب نجم هذا العملاق من الأفول والمغيب وهو يتجه بأفكاره بعد التحدى فى سن الشباب لمعرفة قانون الكون وأسسه إلى المصالحة والتصالح وبخاصة بين العلم والدين" باعتبار أن الدين قد أخذ على عاتقه التعامل مع الغيبيات والتحادث مع الغموض الكامل ، وهو فى ذلك يبنى حيثياته على القناعة والتسليم أليس من الأجدر على العلم بدوره - يكرر سبنسر - أن يدع للدين هذا الميدان ، ولا يضارب على المستحيل فمن الخطأ الاعتقاد أن العلم يمكنه أن يكون فى هذه النقطة بالذات بديلا للدين . ليبقى كل فى اختصاصه ويتحرك فى دائرته ، ومن هنا يترك الغموض والغيب للدين ، ويترك للعلم التعامل مع الظواهر وإدراكها بالملاحظة تصويباً وتخطيئاً ، لاكتشاف ما يسيرها من عوامل انتظام وتكرار أو من قانون ، وهذا بلا شك سيكون لصالح الإنسان والمجتمع ، فالإنسان بقدر حاجته إلى العلم ليتقدم ويقفز به إلى المستقبل ، بقدر ما هو فى حاجة إلى الدين لتكمل به

إنسانيته ... وانتهى العملاق كما انتهى "سان سيمون" مرتداً فى تحديه وتمرده ، وهو الذى ذهب فى شبابه إلى حد القول أن الخوف من الأموات أدى إلى الدين ، والخوف من الأحياء أدى إلى السياسة ، ليرفع راية المصالحة والتصالح فى النهاية وكل هذا فى سبيل إسعاد وإشراق الإنسان ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، وهكذا نرى أن العملاق لا يضيره بحال أن يتمتع بوعى مستنير لا يتكهف ويتحفظ عبر مواقف جاهزة يضل بها ويضلل ناشراً للزيف انطلاقاً من ذاته ليعممه على ذات الآخرين .

لقد كان "هربرت سبنسر" مفكراً جديراً بأن يوضع فى صفوف العمالقة لكى نتعرف به ومعه على نهاية إن لم تكن ككل النهايات فهى بحق نهاية عملاق تصدى لأسس ومبادئ التخصصات التى من خلالها يستوعب الكون والإنسان ... ونهاية عملاق لنظرية التطور تدفعنا بالضرورة ومن باب الموضوعية ونزاهة الفكر أن نتعرض لها كنظرية فى منابعها وأصولها وهنا يتصدر لنا علم تأثر به فى البداية "سبنسر" وكان علينا أن نتعامل معه إما كموقع للصدارة فى النظرية التطورية وما حوله يدور فى فلكه أو استمرار لها أو نقطة إقلاع لا يمكن أن تتجاوز ، وإن كانت تحجم فى إطارها الموضوعى رغم ما أحيطت به من إشهار وإعلان ... إنها "الداروينية" كان علينا أن نختار بين إفراد فصل لـ"داروين" أو اتخاذ موقف عكسى تبنيناه : وهو بدلا من أن نلحق "سبنسر" بـ"داروين" وهذا كان المفروض مراعاة للتسلسل أن يحدث ، ألحقنا "داروين" بـ"سبنسر" رغم أنه وباعتراف "سبنسر" أنه فى البداية أهدى إليه ما كتب وما خط وليس العكس فلماذا لم نشارك الرأى السائد بل والمتصدر وهو حينما تلفظ التطورية أو يذكر النشوء والارتقاء تلقائياً يأتى فى الذهن "داروين" وإن كان ولابد لـ"سبنسر" فهو المستأنس لهذه النظرية اجتماعياً ، باعتبار أن "داروين" المستأنس لها طبيعياً أولا وقبل كل شئ وهنا نطرح تساؤلا : هل بحق "داروين" هو أول مستأنس لها ؟ أم أنه رقم فى مسلسل اجتهد

كما اجتهد غيره من قبل وبخاصة على سبيل المثال لا الحصر "هانس لوى" و "ولاس" و "لامارك" ؟ يذكر "داروين" كما يذكرون فإن كان ولا بد من داروين كعملاق فلم لا على الأقل "لامارك" بما ذكر عن أصل البشرية و"ولاس" أيضاً عن "أصول البشرية" ولهذا ركزنا فى عملقة نظرية التطور على "سبنسر" كمستأنس لها وبفحولة قادرة إجتماعياً بل ونفسياً فضلا عن معطياتها البيولوجية ، ومع هذا وحتى لا نصل مع "داروين" إلى حد القطيعة سوف نفرد له وفى إطار هذا الفصل دائماً عن "سبنسر" والتطورية ، جانباً إن كان من المفروض أن يشكل البداية فقد ارتأينا أن نطرحه وللأسباب التى أشرنا إليها فى النهاية . فماذا عن "شارل داروين" هذا العالم الطبيعى البريطانى (١٨٠٩ - ١٨٨٢) والذى أحيط بهيلمان الشهرة والإشهار والإعلام ليس فى مكان محدد ، بل وفى كل مكان . وهنا أيضاً قد يدفعنا الحوار إلى كيف صنعت هذه الشهرة ، هل خطط لها ورسم أم أنها جاءت تلقائية استحقها الرجل وجدير بها بقدر ما هى جديرة به . تساؤلات سنتعامل معها فيما تبقى من الحوار الخاص . بفصل **"سبنسر" والتطورية .**

ولد "شارل داروين" فى عائلة علم أباً عن جد ، كان جده شاعراً وعالم نباتات بل وعالم حيوان ، وجده لأمه بدوره كان فناناً كبيراً . ومن حاشية الملكة "شارلوت" عمل والده طبيباً فى قرية ، ولقد اهتم بالفن والأدب أكثر من اهتمامه بالعلم ، وكان " شارل داروين" طالباً رديئاً ضعيفاً سواء فى المرحلة الثانوية أو حين دراسته للطب فى "أدمبرة" أو فى "كامبريدج" حيث حصل بصعوبة بالغة فى النهاية على البكالوريا فى "اللاهوت" وهو يناهز آنذاك الثانية والعشرين من عمره . ومما يلفت النظر أن هذا الـ"داروين" الشهير كثيراً ما كان يكوِّن نفسه فى فترة العطلات والإجازات حيث كان يتجول فى الحقول ويتأمل بل ويعيش مع الصيادين وكان يميل إلى رفقة الأساتذة العلماء أمثال "غرانت" و "سيدرويك" فى كامبريدج ، وقد احتضنه "هانس لوى" وأوصى به وساعده لكى يجد

مكاناً فى باخرة مبحرة إلى أمريكا الجنوبية بصفته باحثاً فى الطبيعيات ، ولقد لعب هذا الحدث رغم عفويته دوراً رئيسياً فى مستقبل الرجل . ولقد استمرت هذه الرحلة حتى عام ١٨٣٦ ماراً فى طريقه على كثير من الجزر ، عابراً البرازيل ولقد أثرت هذه الرحلة وأشبعت طموحات هذا الباحث الشاب الذى ما كان منه كاعتراف بالجميل لمن أوصى به خيراً وهو "هانس لوى" إلا أن يرسل إليه بالعديد من ملاحظاته الهامة وما رصده أثناء رحلته ، وقد قام "هانس لوى" بنشرها رغم معارضة "داروين" لذلك ، وسرعان ما بدأ اسم هذا الباحث يتخذ طريقه بين أسماء البحاثة الذين يشكلون آمال التقدم العلمى فى إنجلترا ، وهكذا عين "داروين" عام ١٨٣٨ أميناً لجمعية الجيولوجيا وفى سنة ١٨٣٩ وعمره لا يتجاوز ثلاثين عاماً كان يشفع باسمه كصفة يفخر بها ولقب يعتز به اختزال "ف . ر . س" بمعنى لقب الزمالة بالجمعية الملكية (Fellow of Royal Society) ، ومع هذا لم يكن له ميل إلى التدريس وربما يعزى ذلك لأنه كان طالباً فاشلا، وفى نفس العام تزوج "شارل داروين" من قريبة له "ويدكود" التى حاولت أن تجعل من هذا الرحالة الجائل رجلا متحضراً ليس فقط هذا الجوال فى الحقول وعلى ظهور البواخر ، هذا الإنسان المعتل صحياً وبصفة دائمة بل أغلب وقته كان يقضيه فى سريره ما يجاوز اثنى عشرة ساعة كل يوم كان مع كل هذا يعمل . ومما يلفت النظر عند "شارل داروين" هو مرونته الهائلة فى تعامله مع الآخرين بل قلما كان يستمع إلى بداية تطاحن أو شئ يؤهله للدخول فى مشكلة بل حينما كان ينقد ويهاجم لا يكلف نفسه مشقة الرد على معارضيه فكرياً ، بل كان يترك هذه المهمة لمريديه يقولون الرد بالنيابة عنه فى الوقت الذى كان يعطى الأولوية المطلقة إلى جانب أبحاثه لزوجته وأطفاله السبعة فهو رب أسرة بمعنى الكلمة وكان أيضاً يهتم فضلا عن ذلك بحمامه وزهوره ويميل إلى صحبة الأصدقاء فى منطقة "داون" فى مقاطعة "كانت" كان المفروض بالنسبة لأمثال "داروين" أن يعيش وقد أمنت له الحياة بما كان يصرف من معاشة لأسرته دونما حاجة

لمجهود فقد كان يعيش فى حياة مادية طيبة ومع هذا كان يركز على عمله الفكرى ولم يقبل أن يمارس البطالة المقنعة مكتفياً بإشباع رغباته المادية فكانت تطلعاته الفكرية بلا حدود ، وتسلق سلم الشهرة دونما ضوضاء حتى كانت المفاجأة التى وجهت إليه عبر ما يُعرف بمخطوط "ولاس" عن **الأصول البشرية** وقد سارع مريدوه وأصدقاؤه بنصحه أن يسرع فى نشر بحثه عن **أصول الأنواع البشرية** وفعلا تم هذا ولكن فى نسخ محدودة لا تتجاوز ١٢٥ نسخة ، وظهر فى ٢٤ نوفمبر ١٨٥٩ وحينما ظهر فى المكتبات بيع فى نفس اليوم ولم تبق نسخة واحدة من هذا المؤلف الذى أصبح تاريخاً علمياً متميزاً كمبحث فى **جذور أو أصول الأجناس البشرية** ومع هذا بدأ الهجوم المكثف - ولا نقول النقد المرن - لهذا المؤلف فى الأوساط العلمية بل واللاهوتية على حد سواء ، ولم يوضع فى الحسبان ما قدمه والده وجده من فضل وعطاء للكنيسة ، فقد اعتبر ما قدمه من بحث هدماً للمعبد على من فيه بما أعطاه من شروح عن أصول البشرية ، فقد اعتبر ولكن هل "داروين" وما قدم من تنظير فى التطور يتمتع بالأصالة التى كثيراً ما يغالى فيها وتنتفخ إلى حد إغفال حقيقة الأصلاء؟ لهذا ، أليس من الجدير أن يعطى لكل ذى حق حقه وأن تضاف النظرية إلى مؤسسيها ليأتى داروين كمطور لها بين المطورين وهنا يوضع إلى جانب غيره أمثال "سبنسر" السالف الذكر ... فما "داروين" إلا مطور لنظرية "لامارك" وغيره من السابقين وهى نظرية ثبت خطأها بعد ذلك . ونعنى بذلك **النشوء والارتقاء** عن طريق الانتقاء الطبيعى بالبقاء للأصلح المرتكز على النجاح والفشل وقدرة التجاوز والاستبقاء والإلغاء . ولقد كان لـ"داروين" موقف من الإله ومن التصور الدينى سنة ١٨٧١ وتطور الانسان من القردة ، وما صاحب ذلك من أفكار ، وضع داروين بالنسبة للإنجليز فى موضع المرتد ، رغم ما له من أنصار ومريدين ... ولكن هل لهذا أيضاً علاقة برفض مؤسسة من قمم المؤسسات العلمية فى الغرب له كمرشح ؟ وكيلت له الاتهامات المقنعة نتيجة لما مارسه فى

أبحاثه من أمور ارتأت هذه المؤسسة أنها بعيدة أن تؤهله لعضويتها ونعنى بذلك "أكاديمية العلوم الفرنسية" . وهناك أيضاً نظرية "لينى" فى الفصائل والأنواع البشرية تدحض نظرية "داروين" وأنه ليس هناك ثوابت بل كل شئ قابل للتغيير ولا يذكر لـ "داروين" والداروينية ما تتميز به عما قدمه "لامارك" السالف الذكر وغيره من السابقين . غير أننا نلاحظ أن "هوجو ديفرى" (١٨٤٨ - ١٩٣٥) أعطى لنظرية داروين حيوية فى إطار التغيير الظاهرى التلقائى وقانون التطور فيما يعنى التعدد فى التطور والتباين نتيجة للغذاء والوسط وهما الداعيان إلى التنوع والصراع من أجل الحياة ويعطى البقاء للأصلح . ولقد قدم لنا "داروين" أسساً للتطور الحيوانى والنباتى وله فى ذلك مؤلفات عديدة فهو بحق شغوف بالعلم طموح بلا حدود ، ولعل هذا الطموح لم يقف بـ "داروين" عند حد حياته المعاشة بل كان طموحاً فى تخليد ذاته ، ووضع لذلك مخططاً سهر عليه قبل موته فى أدق دقائقه وهذا الذى يدفعنا عبر حوارنا مع العمالقة أن نضع السؤال التالى : إن كانت عملقة "سبنسر" تحركت تلقائياً وتطورت دونما افتعال أو تصنع وآلت به إلى ما آلت حين وداعه إلى مقره الأخير من العرفان والاعتراف به ليس فقط كعملاق للفكر الإنجليزى وإنما لكل أوروبا بما فى ذلك من انعكاس لها فى الكون فانهالت على نعشه كل مظاهر التشريف ، فمنحت الألقاب الرفيعة لاسمه بصفة رمزية كما منح الدكتوراهات المتعددة الفخرية وتشرفت جامعات متعددة برآسته الرمزية هذا كان "سبنسر" دون أن يسعى أو يخطط فما قدمه للفكر الإنسانى قدم إليه البديل ، أما داروين فيلاحظ أن حياته رغم ما قدم من جهد لا يمكن إنكاره كملاحظ لتطور النباتات والحيوان هى أسطورة صيغت فى معمل الأصدقاء والمريدين ، بل وحتى أفراد أسرته وكان هو يخطط لذلك بذكاء ماهر بل ربما ما كان يتمتع به من مرونة هائلة فى المعاملة وتقبل للنقد مهما كان جارحاً وتجاوزه . هذه اللباقة لا يمكن أن ينكر دورها أيضاً فى أسطورة داروين بل يمكننا أن نقول هى **نظرية اللباقة الداروينية** أكثر

منها **نظرية التطورية الداروينية** إنه بلا شك قد أسهم فى نظرية التطور وشغل حيزاً من ساحة الفكر الإنجليزى لا يستهان به ، معه ، أو ضده ، وعاصرته الضوضاء بين مريدين اتجهوا به إلى العبقرية وخصوم أنزلوه إلى موقع الارتداد ، هو عملاق ولو كأسطورة ، ولكن تبقى النظرية التطورية قاسماً مشتركاً بينه وبين "سبنسر" وغيرهما ، ولم لا ؟ وتعود الأصالة إلى السابقين كما تعود إلى المتطورين دون إغفال لمساهمات أى كان موقعها . ويسير بنا موكب العمالقة لنلتقى بعملاق وفى هذه المرة فى الفكر الجرمانى ونعنى به **"ماكس فيبير" هذا الذى انطلق من الماركسية ليصبح فى قمة التحدى لها** ، والتفنيد المتميز لعطائها ، مما جعل بصماته تترك وبدورها فى شكل متميز عبر ساحة الفكر الليبرالى ليس فقط فى ألمانيا مسقط رأسه ولكن فى الغرب الليبرالى بصفة عامة .

فماذا عن "ماكس فيبير" ونهاية عملاق ؟ .. وهذا هو موضوع الفصل التالى .

* * *

الفصل السابع

ماكس فيبر ونهاية عملاق

مـاكس فيبر مفكر بدوره عملاق شغل ساحة الفكر الليبرالى بقدر ما شغل "كارل ماركس" ساحة الفكر الاشتراكى الذى كثيراً ما يحمل اسمه . فـ "فيبر" موسوعى النزعة أسهم فى الدراسات الأقتصادية كأحد منظريها كما أسهم فى الدراسات السوسيولوجية بل يعتبر رائداً من الرواد البارزين لسوسيولوجية الأديان ولد فى "ارفورت" يوم ٢١ إبريل ١٨٦٤ بشرق ألمانيا وكان أكبر إخوته سليلا لأسرة عريقة متدينة سهرت على تربيته تربية دينية وثقافية متمكنة حيث كان لوالده مكتبة أسرية هامة وكان الوالد بدوره متفتحاً على ثقافة عصره ومفكريها من "شكسبير" و"سبينوزا" حتى "جوته" و "شبنهاور" مروراً بـ"كانط" هذا الوالد الذى كان يمارس العمل الدبلوماسى كما كان عضواً فى البرلمان على عهد "بسمارك" الذى كان يكن له فيما بعد تعاطفاً ومناصرة فى فترة من حياته ، وحتى الوالدة كانت تتمتع بمستوى لا بأس به من الثقافة ولها نشاط اجتماعى متعدد وكان بيتها صالوناً من صالونات الفكر كثيراً ما يجتمع فيه صفوة القوم ورجال السياسة والأكاديميين من جامعة "برلين" وغيرهم ... فى هذا الجو نشأ ماكس وترعرع وبعد أن أكمل دراسته الثانوية التحق بجامعة "هايدلبرج" حيث عكف على دراسة القانون والاقتصاد فضلا عن إشباعه لميوله الفلسفية ، كما عرف أروقة جامعة "برلين" و "جوتنجن" واجتاز امتحان الدراسات القانونية عام ١٨٨٦ ليلتحق بسلك المحاكم ببرلين ولم يمنعه ذلك من أن يكمل دراسته العليا ليحصل على الدكتوراة عام ١٨٨٩ ، ويمارس تدريس القانون بجامعة "برلين" ثم الاقتصاد بجامعة "فريبورج" ليصبح أستاذاً لكرسى الاقتصاد بجامعة "هايدلبرج" خلفاً لـ"كينز" الاقتصادى الشهير .

ولم تقف اهتمامات "ماكس فيبر" عند حد الدراسات القانونية بل كانت

له اهتمامات أخرى بمختلف فروع المعرفة فى المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً . تزوج فى عام ١٨٩٣ وتنقل أستاذاً فى الجامعات الألمانية فعمل بعد "هايدلبرج" فى جامعة "فريبورج" وضاعف وكثف من نشاطه ، ولكنه ومن الغريب وفى نفس الفترة التى عانى منها عملاق آخر ونعنى بها نهاية القرن ، وكأن نهاية القرن تحمل الشؤم كنهاية للعمالقة وتأزم "ماكس فيبر" كما تأزم "نيتشه" فقد أصيب بانهيار عصبى كلفه سنوات طوال من المعاناة باحثاً عن الاستشفاء فى نفس إيطاليا التى عرفت معاناة "نيتشه" وقضى فى روما فترة من العمر أبعدته عن القراءة والتأليف وأرغمته على العزلة والانعزال ، ولكن على عكس ما تم لـ"نيتشه" لم ينته المطاف بعملاقنا نهاية المأساة النيتشاوية المحزنة ، ولكنه تعايش وبإصرار مقاوماً لمعاناته ، بل استطاع أن يقدم لنا فى سنة ١٩٠٤ ما كان سبباً فى إشراق شهرته وتصدره فى ساحة الفكر ، ونعنى بذلك النظرية الهامة التى تركت ليس فقط بين معاصريها ما تركته من أصداء ، وإنما ما زالت حتى اليوم تذكر كدعامة قوية قادرة من دعامات تبرير الرأسمالية بنفس القدر الذى تعتبر نظرية أخرى معاصرة قدمتها ألمانيا لا تقل جبروتاً عنها ، من حيث الفكر ، ولكن فى الساحة المعارضة ونعنى بها "روزا لكسمبورغ" الأستاذة الجامعية الألمانية أيضاً والتى قدمت نظرية أسهمت فى انبعاث الماركسية المتأزمة نظرية **"تراكم رأس المال"** ، أما نظرية مفكرنا الذى نحن بصدده فقد كانت بعنوان **"المبادئ الأخلاقية أو (الايتيك) البرتستانتية ، وروح الرأسمالية"** ، وسافر ماكس فيبر إلى أمريكا مبدياً لتعاطفه مع النظام هناك ، وليتعرف على الشهرة والاشتهار ويصبح أستاذاً زائراً فى العديد من الجامعات إلى جانب ما ذكرنا كجامعة "فيينا" و "ميونيخ" وينتقل وتتنقل معه شهرته وأصداؤه ، هذا المتعايش مع المعاناة والمواجه لها ، والقادر على احتوائها ، دون كلل أو ملل ، غير أنه وما زال فى السادسة والخمسين من عمره أصيب بالتهاب رئوى حاد أنهى حياته فى سنة ١٩٢٠ تاركاً من ورائه اسماً

متصدراً ومنظراً متميزاً إن كان قد تأثر فى بداية حياته بالماركسية كما تأثر بـ"دوركايم" و "باريتو" فقد أثر فى الكثير من بعده وعلى سبيل المثال يعتبر أحد رواد السوسيولوجيا المعاصرة فى الولايات المتحدة ونعنى "تالكوت برسنس" أحد شراحه والمبرزين لعطائه ليس فقط فى إطار السوسيولوجيا بل الاجتهادات المنهجية والتوفيق بين العقل والواقع ، وتفهم الروابط العلائقية بين العلوم الاجتماعية باعتبار أن "ماكس فيبر" لا يمكن تجاهل إسهاماته فى هذا المضمار ، فهو فضلا عن شهرته كمنظر الليبرالية تحت شعار الترابط بين "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية" فهو يذكر بلا شك كمنظر أيضاً لسوسيولوجية الأديان خصوصاً فى إطارها التفهمى لسوسيولوجية تفسير معانى السلوك وتحاول استكشاف الدوافع على ضوء أنماط سلوكية مثالية باعتبار أن النمط المثالى يوجد فى عالم الأذهان بينما السلوك الاجتماعى متبادل ينشأ عن علاقات تحتكم للسيطرة أو القوة والصراع والزعامة ، الخ ... بوصفها كأشكال للعلاقات تعكف السوسيولوجيا على تفهمها ، واهتم بالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى إلى جانب اهتمامه بتفسير وفهم السلوك كما أشرنا . ولقد حاول فى نظريته أن يتصدى للماركسية بطريقته رغم أنه فى البداية تأثر بها ، إنه مفكر توفيقى يحاول الربط بين الضبط والتقنين موسعاً لإطار مناقشاته الفكرية محاولا تغطية العديد من التخصصات بتنظيره لها والذى لم يقف به عند حد ما أسلفنا ذكره وإنما حاول أن يتعرف على الحضارات الأخرى خصوصاً الحضارة الشرقية بعد أن استوعب على حد منظوره الذاتى للمسيحية كلفانية وكاثوليكية ، بل وأعطى حيثيات لقناعات البرتستانتى بالرأسمالية من حيث أن الكلفانية تشجعه على الادخار والاستثمار والتحمس للودائع والتدبير وتدعوه إلى تقديس العمل واحترام المهنة والالتزام بالواجبات والقواعد ونبذ التواكل والاسترخاء وتفرض عليه الحركة والنشاط والكسب فضلا عن التحلى بالأمانة والصدق فى القول واتقان الحرفة وتبجيل المهنة ، هذا السلوك البرتستانتى

الكلفانى باتيكياته - أى أخلاقياته - هو بلا شك متكامل مع روح الرأسمالية ، أما فيما يعنى الأديان الأخرى الشرقية فيلاحظ أن "ماكس فيبر" على عكس ما أبداه من اعجاب بمسيحية الخلاص والصلاح والنجاة بقدر ما كان قصير الفهم رغم دعوته إلىّ التفهم ورفعه لراية ما أطلق عليه "العلاقة العلية" أو "منهج التوافق" وذلك فيما يعنى الإسلام فما قدمه عن الإسلام يبدو وكأنه مواقف مبيتة فورية وعفوية ... فبالنسبة له الإسلام دين حربى يقوم على القوة العسكرية وإن كان قد أشار فى معرض دراسته للإسلام لبعض ظواهره الاقتصادية كالزكاة وإن كان بصفة عامة اهتم "ماكس فيبر" بالأديان وبالكارزمية والقوة الكامنة المسيرة للزعامة أو الزعيم الملهم مبعوث العناية الإلهية وأعطى أمثلة بـ"الكسندر" و"يوليوس قيصر" و "نابليون" و أبطال "هيجل" و "القوة الكامنة فى ألمانيا" باعتبار أن هذه القوة الكامنة الخفية المتعددة الوجوه تحقق إرادة العالم ... وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على تعدد اطلاعات "ماكس فيبر" واهتماماته مما جعله يقدم إسهامات فى العديد من ضروب المعرفة بل تعتز به السوسيولوجيا كمنظر حاول أن يطرح أرضية تفهمية لدراسة الظواهر الدينية وكيف أن هذه الظواهر تؤثر فى البنية الأسرية والاجتماعية وفى العلاقات تفهم يستوعب بفضل الإدراك المباشر لمعانى السلوك الجماعى الداخلية بغية شرح وتفسير ما هو مسبب لها وأن السلوك يكون جماعياً حينما يكتسب نتيجة لسلوك الآخرين ويترتب عليه .

يذكر "ماكس فيبر" متصدراً حينما تطرح الليبرالية على مستوى التبرير والتنظير باعتباره عميداً من العمداء فى هذا المجال لا يمكن إغفال ما قدم من اجتهاد وهو بلا شك أعطى لألمانيا البروتستانتية من الحيثيات ما يجعلها أكثر تجاوباً وتفاعلا مع الرأسمالية ، ليس فقط فى عصره بل حتى يومنا هذا ، فألمانيا التى قدمت لنا عملاقاً آخر هو "كارل ماركس" احتفظت فى غالبيتها بالانتماءات التى أعطاها "ماكس فيبر" من حيث

العلاقة العضوية بين البروتستانتية والرأسمالية وألقت بالماركسية خارج أرضها لتنبت فى روسيا القيصرية وتنمو وتتشعب لتصل فى النهاية إلى الجانب الشرقى من ألمانيا ، ومع هذا ظلت ألمانيا بغربيتها "فيبرية" النزعة بطريقة أو بأخرى وحينما يتطلع الألمانى للنزوح وتجاوز الستار الحديدى فى حواجز برلين ، فإنما ليجتاز من الشرق إلى الغرب وليس العكس ليترك ألمانيا "كارل ماركس" إلى ألمانيا "ماكس فيبر" . فماكس فيبر من هذه الزاوية لا يمكن إنكار عملقته كما لا يمكن إنكار عملقة خصمه وعنيده "كارل ماركس" ، تأزم هذا العملاق وعانى من الانهيار العصبى معاناة لم تلق به فى عالم النفايات والتهميش ، ولكنه استطاع متعايشاً معها أن يلقى بها هو فى عالم التهميش . ذهب ماكس فيبر وبقيت لنا أصداؤه عبر عديد من المعاصرين من "كالكوت برسنس" حتى "كارل مانهايم" وغيرهما الكثير ...

وهكذا أنجبت ألمانيا عمالقة وعمالقة برزوا فى عطائهم وتصدروا كما برزوا فى معاناتهم وتصدروا ، منهم من استطاع أن يتعايش مع المعاناة ويحتوى الانهيار ليصل بعملقته إلى غايتها ومطافها ، منهم من انكسر وانفجر وبقدر ما كانت المعاناة كان صوت الانفجار ووقعه .

لقد استطاع "ماكس فيبر" ومن قبله "كارل ماركس" رغم التباين أن يتساكنا مع الآلام فى نهاية العمر ليصلا إلى قبرهما دون ضجيج أو ضوضاء ، غير أننا نلاحظ بالنسبة للعملاق الذى سوف نتصدى له فى الصفحات التالية كيف أنه برز وتصدر بصفة استثنائية جعلته علامة استفهام كبرى فى تاريخ الإنسانية المعاصرة ، علامة استفهام يطرحها المعجبون والمتعاطفون كما يرفعها المعارضون والمتسائلون إنه "فريدريك ولهلم نيتشه" فماذا عن هذا العملاق وكيف أن نهايته كانت متميزة من بين النهايات ؟

* * *

الفصل الثامن

نيتشه ونهاية عملاق

إنه "فريديريك ولهلم نيتشه" اسم متميز ليس فقط فى الفلسفة المعاصرة كفيلسوف القوة ، وإنما فى الفكر العالمى وعلى كل مستويات التحدى والإصرار ، ولد عام ١٨٤٤ فى "ريكن" قرب لتسن ، ورحل مع مطلع هذا القرن ، وقبر فى "فيمر" حيث استقر فى مثواه الاخير مستريحاً من معاناته ، وذلك فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس ١٩٠٠ ، ولكن من أين ننطلق فى حوارنا مع هذا المفكر المتميز فى فكره وإصراره بقدر تميزه فى معاناته وآلامه ونهايته ؟ لقد نشأ فى بيئة كنسية فوالده كان راعياً لكنيسة "هركارل لودفيج" ووالدته بدورها تنتمى إلى أسرة متدينة وسليلة لرعاة الكنائس.

وليكن انطلاقنا من والده ، وكيف ترك بدوره بصمات فى ذهنية هذا الطفل "فريدريك" حيث احتضر مدة طويلة قبل أن يموت ، وكان الطفل "فريدريك نيتشه" يلاحظ هذا الموت البطئ وهذا الاحتضار المرير الذى ترسب فى لا شعوره دون شك ، ومات الأب فى ٣٠ يوليو ١٨٤٩ ولم يتجاوز نيتشه الطفل خمس سنوات . لم يتأثر نيتشه الطفل بمعاناة والده واحتضاره فحسب ، وإنما أيضاً تأثر بما ورثه منه . فقد ورث صحة عليلة ومعتلة دون انقطاع ، عاش أولاً فى "نومبورج" بجانب والدته وخالته وكانتا تتميزان بأخلاق صارمة ملتزمة وأخته أيضاً بدورها .

وفى ١٨٥٣ بدأ يتابع دراسته بالمؤسسات المدرسية ليبقى فيها ستة أعوام ، ومنذ الثالثة عشر من عمره استعاد "نيتشه من ترسيبه اللاشعورى تسلط فكرة الموت المسيطر والتطلع الى الشقاء ، وترجم ذلك فى قصائد شعر عام ١٨٦١ مستعيداً لذكرياته أى لم يتجاوز السابعة عشر من عمره ، ووضع لها كعنوان " الإله المجهول" ثم سجل فى جامعة

"بون" ليتابع ما تبنته العائلة فى تقاليدها ، ونعنى بذلك دراسة اللاهوت ولكنه اهتم أيضاً بالفيلولوجيا ، وتأثر بالعلامة "ريتشل" الذي أبدى له اهتماماً به . وانتقل بعد ذلك الى "لايبزج" متبعاً لخطوات أستاذه .

وهنا نلاحظ أن "نيتشه" قد اكتشف شخصية لها ثقلها فى الفلسفة الألمانية عبر مؤلفها الأساسى **"العالم كرغبة والعالم كتمثل"** ونعنى بذلك "شوبنهور" كما أن "نيتشه" الشاب التقى بڤاجنر بعد إلقائه لعرض موسيقى رائع . وكان اعجابهما المشترك بـ "بيتهوفن" غير أن "ڤاجنر" اتجه بعد ذلك إلى "تريبشن" بجانب "لوسرن" لكى ينغمس فى مؤلفاته الموسيقية حيث جمال الطبيعة وروعتها يوحى له بعمق النغم ورقة الإيقاع ، وأما "نيتشه" بدوره فقد اختير لكى يكون أستاذاً فوق العادة فى جامعة "بازل" فى سويسرا . وهكذا رحل كل فى طريقه ولكن فى مناطق متقاربة فى سويسرا حيث تولدت بينهما صداقة وتعاطفاً عمرت أكثر من ثمانية أعوام تركت بصماتها كعلاقات متميزة رغم أنها أقلعت فى البداية من غيبة التفاهم الكامل ، الذى ظل علامة استفهام كبرى بين الرجلين .

ونعود إلى نيتشه حيث عرف النجاح فى جامعته لكى يصبح فى فترة وجيزة أستاذاً مرسماً وذلك عام ١٨٧٠ وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره . ومع هذا ظلت محاضراته القيمة عن **الفيلولوجيا وعن مولد الفلسفة فى عصر التراجيديا الإغريقية** دون نشر حتى سنوات متأخرة إذ أنها نشرت عام ١٨٩٦ ، كما نشر له عام ١٨٧٣ **تأملات فى غير الأوان** ، استراوس ، ثم (١٨٧٢ - ١٨٧٤) **فوائد التاريخ للحياة ومضاره** ، وفى عام ١٨٧٤ **"شوبنهور" العربى"** ، (١٨٧٥ - ١٨٧٦) **ريتشارد ڤاجنر"** . ولم تعرف قدرات "نيتشه" وعطائه الأصيل التعاطف والاعجاب ، بقدر ما خلقت له مسلسلاً من المشاكل خصوصاً وقد برز كفيلسوف يركز اهتمامه على ما قبل "سقراط"

منفرداً بذلك بين زملائه الأساتذة ، وكذلك بالنسبة لطلابه . ويلاحظ فى هذه الفترة عمل "نيتشه" كمتطوع فى التمريض خلال حصار " ميتز" ولم يمنعه تطوعه هذا من أن يضع البصمات الأخيرة **لأصل التراجيديا** عام ١٨٧٢ ، ثم استرسل فى نشره لمحاولاته الفكرية واتجه بها فى بيئة غير متقبلة لعملقته إلى العزلة والانعزال وحاول أيضاً أن يعيد الوفاق مع صديقه "ڤاجنر" وأن يتصالحا ، ولكن لم تجد هذه المحاولات ، وبدأ الإعياء يشق طريقه إلى جسد هذا الفيلسوف فانتابته موجات تلو موجات من الصداع الدائم ، واضطراب فى النظر ، وقرر " نيتشه" أن يعود إلى جامعته " بازل " ليستأنف محاضراته فيها ومن الغريب أن فيلسوفنا - وهذا شئ يلفت النظر - استأنف محاضراته فيها ، فقاطعها الطلاب . وفى هذه الفترة كتب "**إنسانى وإنسانى للغاية والفجر**" عام ١٨٧٨ ، وفى ١٨٧٩ بعد أن قدم استقالته التى قبلت بدأت مسيرة المعاناة حتى القاع ، غير أن القلم لم يفارق يده كان يكتب ويكتب وخط من بين ما خط فى هذه الفترة الحزينة "**الراحل وظله**" عام ١٨٧٩ ، ثم أقام فى صحبة صديقه "بيتر كاست" (١٨٥٤ - ١٩١٨) بالبندقية ، ومنها اتجه إلى "جنوه" حيث استقر فيها ووضع سمات المشروع الذى يريده على ضفاف بحيرة "سلزماريا" ، حيث كان الاستلهام . واستمر ترحال فيلسوفنا متنقلا بين نيس بفرنسا شتاءً وصيفاً فى سلزماريا ، بينما فى الفصول الأخرى من السنة عبر أماكن مختلفة منها تورينو ، والبندقية وغيرهما فى السنوات التالية (١٨٨٠ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ - ١٨٨٣) . وفى هذا العام توفى "ڤاجنر" ، أما "نيتشه" فقد تابع نشاطه الفكرى فى التأليف متعايشاً مع كل ظروف المعاناة فكانت "**المعرفة المرحة**" عام ١٨٨١ أو **العلم المسرور** (كما ترجم البعض العنوان هكذا إلى العربية) ، وكتاباته فى عدة أجزاء عن "زرادشت" أو "زرادوتشترا" أو كما نقلت كعنوان بالعربية : هكذا قال أو تكلم زرادشت (١٨٨٢ - ١٨٩٢) ، **وإرادة القوة** (١٨٨٣ - ١٨٨٨) **ونشرت بعد وفاته ، وعبر الخير**

والشر عام ١٨٨٧ ، **ومقدمات** عام ١٨٨٦ **وعروق الأخلاق أو نسبها** عام ١٨٨٧ **وغروب الإله المزيفة أو شفق الإله** عام ١٨٨٨ **ونيتشه ضد ڤاجنر** عام ١٨٨٩ ، **وضد المسيح** عام ١٨٩٥ ونشر فى ١٩٢. ، **وهذا هو الإنسان** نشر فى (١٩.٨ - ١٩.٩) .

وهكذا كانت غزارة الإنتاج وتعدده وتنوعه بقدر غزارة المعاناة ، وقوتها وتنوعها ... فبجانب الهموم الصحية والمعنوية أضيفت الهموم العاطفية فقد قدمت له صديقته "ما لفيدا" فى روما ١٨٨٢" لو أندرياس سالومية" حيث اكتشف فيها مفكرنا الذكاء الخارق فكانت لها المكانة المتميزة ، وليست مجرد تابعة بين الأتباع والمريدين ، ولكن سرعان ما اكتشفت هذه الوليفة الأليفة طباع "نيتشه" الغريبة كما وصفتها ، فقطعت علاقاتها معه لتصل به إلى قمة الآلام وذروة المعاناة وتنقل من جنوة الى نيس مريضاً ، وتداخلت لديه الأمور ، والتبس فى ذاته مقلعاً بعوارض الجنون فى شتاء ضبابى مؤذناً ببداية الكارثة ، وحملت رسائله الى أصدقائه القدماء أصداءها فحضر من صقلية صديقه الوفى "أوفيربيك" الذى قاده الى دار **للمجانين فى ألمانيا** مع أمل مفقود فى شفاء العليل ، وانطوت صفحة عملاق تحدى العقل ، والأخلاق ، والفلسفة ، واصفاً لكل هذه الأسس بالوثنيات مبشراً **بالإنسان الأعلى الخارق** ، ونسى إنسانه فى غمرة الوعى ، وضاع عنه كيانه ، وباسم السيادة والسادة والسيطرة والقوة ، والمغامرة ، والمحاضرة وتصفية الحسابات مع كل شئ افتقد كل شئ ، فقد غاب عنه ، وهو فى غمرة الدفع والتحليق بإنسانه والتغنى بقوة المفتعل ، أن يتذكر الجانب الأخير من الانسان الملموس ، وهو الضعف كما يقول الحق سبحانه : **"يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً"** [١].

لقد ترك نيتشه آثاراً مع هذا تشهد على طبيعة تحديه وعناده وشغلت حيزاً لا يستهان به فى تاريخ الفكر الإنسانى المعاصر فكتب عنه الكثير

(١) النساء : ٢٨

لشرح وتحليل فكره ، وعلى سبيل المثال لا الحصر "هيدجر" أحد رواد الفلسفة الوجودية ، كما كتب عنه "كارل جاسبرس" وهو لا يقل شهرة عن "هيدجر" إلى جانب "اندلر" ، و"بارونى" وغيرهما ، وترجم فكره إلى ثقافات أخرى غير الجرمانية وتصدر بنزعته "الهيرقليطية" وبتحفظاته على الفلسفة ، والأخلاق ، وحتى على العلم والعقل ونقده للحضارة وطرحه لأخلاق السادة ، أمام خلقيات العبيد عبر تاريخ الإنسانية مبرزاً **لكمائن الضغائن المترسبة** فى صراع البشرية بين القوى المجازف ، والمغامر والباحث عن الأخطار ، والضعيف المستكين المزكى لخنوعه ، بمسميات تبريرية مبرزاً ذلك فى الصراع بين اليهود والرومان ، وأصداء فى المسيحية ومستمراً فى رؤيته لمنطوق الصراع كما تصوره حتى بالنسبة لحركة الإصلاح الدينى وتقمصها لمداخلات ما سبقها منذ اليهودية جاعلا من نابليون رمزاً لاخلاق السادة .... وغيره من خوارق الرجال فى تاريخ الإنسانية ، وحتى الفلسفة لم تنج من نقده وتشريحه لها منذ سقراط فضلا عن الدين ، إن نيتشه يرمز لتمرد العقل حتى على العقل فى النهاية ، وينحنى الخير أمام القوة لتصبح الحياة لديه إرادة وإرادة القوة والألم ، رافعا لشعاره "من لم يتمكن من قتلى قد ضاعف من قوتى فانسانئنا اليوم عوامى لا يتجاوز مجرد المدخل للإنسان القادم صاحب القوى الكامنة **"وكما تكلم زرادشت"** إنى أخاطبكم بخطاب الإنسان الخارق ، فماذا فعلتم من أجله ، من أجل الإعلاء بالإنسانية ، إيماناً بسنة التطور لا بنكسات الارتداد ، الإنسان الأعلى ، الإنسان الخارق ، لا يتهيب المعاناة والحرمان بل يبحث عنهما ... ".

هل كان نيتشه يهدف بتطلعاته إلى تأسيس مدرسة فلسفية منه وإليه ؟؟؟ أم أنه مثالى ركز على تفنيد الواقع الملموس وانساق فى تفنيده ليقوده الى التمرد بوعيه الشقى باسم الإنسان على الإنسان ؟ متنكراً لأى حالة خارج الذات ولا مرجعية للإنسان إلا من صنع قوة الإنسان ... التى قادته متفجرة الى الهاوية ، تفجرت فيه بعد أن افتقدت معاييرها

وسننها ، إن نيتشه أراد أن يخلف الدين والفلسفة والأخلاق ، بل والعقل باسم العقل ، فافتقده فى نهاية المطاف ، وكانت نهاية عملاق وأى عملاق ترك بصمات هنا وهناك لدى العديد ممن تأثروا به وبأفكاره إلى حد تَمَثُّل مأساته ومعايشته فى جحيم جنونه ، وهذا بالضرورة يقودنا إلى إعطاء ولو نموذج من هؤلاء الذين تأثروا به وعلى سبيل المثال لا الحصر نتحاور معه فى الفصل التالى ، وبخاصة هو معاصر له فضلا عن أنه لا يقل عنه مأساوية ولا شهرة ولا عملقة وإن كان فى مجال الإبداع المسرحى والنقدى للمجتمع مما آل به وبدوره إلى ريادة متميزة فى حضارة الغرب ونعنى به "يوهان أوجست سترندبرج" أحد عمداء المسرح العالمى. فماذا عنه وعن نهايته كعملاق ؟

* * *

الفصل التاسع

سترندبرج ونهاية عملاق

ذكرنا فى دراسة سابقة لنا عن هذا المفكر ، لخصت بعض أصدائها ، بالعربية فى **"نافذة الأدب العالمى"** التى تفرد لها مجلة الدوحة القطرية جانباً من صفحاتها وتحت عنوان **"الغوص فى خفايا الباطن"** سنة ١٩٧٧ ، أنه "منذ أربعة عشر عاماً (أى سنة ١٩٦٣) وفى جزيرة جان جاك روسو القابعة تحت أعتاب مدينة جنيف عند منطلق نهر الرون فى نهاية مطاف بحيرة ليمان ، وبجانب شجرة فيها تساقطت أوراقها فى مطلع خريف باهت ينحدر الضباب على خديه ، جمعتنا جلسة هادئة مع أصدقاء لنا من أبناء جنيف منهم : الباحث ، والأديب ، والفنان الموسيقى والمسرحى ، وكان الحديث عن جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) بمناسبة احتفال ثقافى قريب العهد أقامته تكريماً له مدينة جنيف ، باعتباره من مواطنيها ، فى ذكرى مرور قرنين ونصف على مولده ، وكنت قد ساهمت فى هذا الحفل ببحث متواضع عن "جان جاك روسو والشرق" نشر فى حينه بـ"التربيون دى جنيف - أغسطس ١٩٦٢" .

وبدأ حديثنا عن هذه الشجرة التى كثيراً ما تظلل جان جاك روسو بظلالها وهو سابح فى تأملاته فى الأفق الممتد أمامه عبر هذه اللوحة الفريدة التى خطها الخالق الأعظم لطبيعة الكون ، ومن حوله البحيرة تنساب فى براءة وصفاء تحتضنها مدينة جنيف الخجولة وكأنها متدثرة بالخضرة ، وبالجبلين الشامخين من حولها تحتمى بهما "الجورا" و "مون بلان" . الأول رزين فى صمته أصيل فى سمرته ، والثانى سعيد بثلوجه فخور بقامته .

ومن الشجرة تمركز الحديث حول جان جاك روسو اليتيم التائه ، والموسيقى الفنان ، والمربى الصريح ، والفيلسوف المبدع المحب للطبيعة المدافع عن "فطرية طيبة الإنسان" والداعى إلى تحرره من الظلم

والطغيان . جان جاك المفكر الذى هبت رياح دعوته فى كل مكان .
وعبرت، سحب العصور التالية له مورقة متمرة ، إن كانت نسمات إحساسية عن الحرية تسربت إلى الشرق رغم دخان انفعاله ، مترددة وجلة وخائفة ، تستطلع الطريق من "الرسائل الفارسية " لمنتسكيه (١٧٥٥ - ١٧٨٩) فانعكاسات عطائه روت بفيضها الغرب ، وساهمت فى تفجير طاقات مفكريه الإنسانيين ، حتى وصلت إلى مشارف اسكندنافيا.

وهكذا تشعب بنا الحديث ليصل إلى "أوجست سترندبرج" المفكر السويدى والناقد الاجتماعى الكبير (١٨٤٩ - ١٩١٢) وكانت معلوماتى عنه شخصياً محدودة آنذاك ، كان تعاملى معه فكرياً فى إطار محدد خاص بأبحاثى عن أثر المدرسة السانسيمونية الإنسانية الفرنسية فى اسكندنافيا . وفى أعقاب هذه الجلسة شدنى الشوق للتعامل مع "سترندبرج" فى شكل أوسع وأعمق . إذ أن تعاطفنا مع المشروع الفكرى قبل ولادته يلعب دوراً أساسياً فى إنجازنا له ، وقد كان ، فوضعت بحثاً عن "أثر جان چاك روسو على سترندبرج" وآخر عن "تصوره لمفهوم الوحدة الأوربية" ثم دراسة اجتماعية عن مؤلفيه "ابن الخادمة" و"الغرفة الحمراء" وكيف حلل مجتمعه ، ونقد بنية الأسرة الاسكندنافية . وتوقفت رفقتى له عند هذا الحد فى الستينات ، وها أنا اليوم أعود إليه من خلال هذا الحوار أيضاً لأقدم فكرة موجزة عنه بهدف التعريف به كمفكر وكإنسان وبخاصة نهايته كعملاق فى حضارة الغرب .

ولد "أوجست سترندبرج" سنة ١٨٤٩ فى عائلة كثيرة الأطفال (١٣ طفلا) ، وكان والده برجوازياً سويدياً متوسط الحال يعمل فى التجارة ، أما والدته فهى من عائلة فقيرة وكانت تعمل خادمة ، وماتت وعمره لم يتجاوز الثلاثة عشر عاماً ، وتزوج والده بعد ذلك مرة ثانية ، ولقد تابع "سترندبرج" تعليمه ، والتحق بمدينة "ابسلا" لدراسة الطب ، ولكن سريعاً ما عاد إلى استكهولم حيث عمل معلماً كى يعيش ، وفى سنة ١٨٦٩

اكتشف قدرته ككاتب فى محاولات [illegible] ، ولكنه عاد من جديد لدراسة الطب فى "ابسلا" سنة ١٨٧. ومع هذا لم يوفق فى الحصول على درجة جامعية ، فاستقر به المقام سنة ١٨٧٢ في استكهولم ليعمل صحفياً فى هذه المرة ، وممثلاً ، وناقداً مسرحياً ، وكان صعب المزاج كثير الشجار مع رؤسائه ، وفى سنة ١٨٧٤ عين مساعداً فى الخزانة الملكية ، وبقى فيها حتى سنة ١٨٨٢ . وخلال فترة عمله هذه ، ارتبط بعلاقة عاطفية مع البارونة "فون ايسن" (١٨٥٠ - ١٩١٢) فطلقت زوجها من أجله ، وأصبحت ممثلة مسرحية وتزوجته فى سنة ١٨٧٧ ، ولقد كانت سنواته الأولى معها سعيدة وأنجب منها بنتين :"كارين" و"جرتا" .

وبدأت شهرته فى الانتشار ككاتب بفضل تراجيديته "السيد أولوف" وخصوصاً "الغرفة الحمراء" سنة ١٨٧٩ ، ولكنه عقب النقد اللاذع الذى وجه إليه ولإنتاجه ، سافر بصحبة زوجته سنة ١٨٨٣ إلى فرنسا ، ثم إلى سويسرا ، وهناك ولد ابنة "هانس" . وحينما كتب مسرحيته "المتزوجون" حوكم ، فقفل حزيناً راجعاً إلى الشمال وأقام بالدانمارك وعرف ظروفاً مالية صعبة وقاسية سنة ١٨٨٧ جعلته يقرر الرجوع إلى مسقط رأسه السويد سنة ١٨٨٩ وهو فى حالة انهيار عصبى قريب من الجنون . ومع هذا وضع مسرحية "الأب" سنة ١٨٨٧ ، "والرفاق" سنة ١٨٨٨ و"الآنسة جولى" سنة ١٨٨٨ "والحلم" سنة ١٩٠٢ ، وانتهى به المطاف إلى طلاق زوجته سنة ١٨٩١ ، فشد رحاله من جديد متجهاً إلى برلين سنة ١٨٩٢ بعد أن هدأت حالته نسبياً .

وهناك كان ينتظره لقاء عاطفى جديد فقد تعرف على الصحافية النمساوية الشابة "فريدا أوهيل" (١٨٧٢ - ١٩٤٣) وهى فى عمر الزهور ، إذ لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها ، وتزوج بها عام ١٨٩٣ ثم سافرا معاً إلى إنجلترا ، ومنها عرجا إلى ألمانيا ، وأنجب منها طفلة ، ثم كانت العودة إلى باريس سنة ١٨٩٤ حيث كان البؤس وكان الشقاء ، وأخيراً الجنون فى انتظاره.

وأثناء أزمته البارسية وفى نفس السنة وهو فى قمة معاناته المرضية العصبية ، كتب رائعته الجحيم "انفيرنوا" وبالفرنسية . وكان الرحيل من جديد إلى السويد عن طريق النمسا التى لم يقم فيها طويلا ، وبقى فى السويد بمدينة "لند" سنة ١٨٩٩ ، وفى هذه الفترة (١٨٩٩ - ١٩٠٤) كتب تحفته الاستشراقية "الطريق إلى دمشق " فى ثلاثة أجزاء .

ومع اقتراب عمره من الخمسين بدأت طلائع حياة الدعة ، وبشائر الرفاهية تظهر فى أفق وجوده الذي لم يعرف إلا المعاناة . وكان حبه الثالث مجسداً فى الممثلة النرويجية "هاريت بوس " تزوج بها فى مايو سنة ١٩٠١ وأنجب منها طفلة "آن مرى" وكأنه كان فى كل زواج حريصاً على تخليده بأثر . وكما كان الوضع فى الزيجات السابقة انتهى هذا الزواج أيضاً بالطلاق بعد عام .

وبدأ فى كتابة "الراية السوداء" على إثر تكثف النقد الموجه إليه وفيها يسخر من نقاده . ثم أسس "المسرح الباطنى" الذى كان توّاقاً إلى تأسيسه منذ أمد بعيد ، واستمر فى إنتاجه الذى بلغ السبعين بين مؤلف ، ومسرحية ، وقصة ، وسيرة ذاتية ، أبرز لنا من خلاله حياة المجتمع السويدى ، ومعطياته بإيجابياته وسلبياته .

إن إنتاج "ستراندبرج" خير شاهد على نزاهته الفكرية وصراحته مع ذاته أولاً قبل أن يكون صريحاً مع الآخرين ، ففى "ابن الخادمة" صوّر لنا حياته دون زيف أو تصنع ، مؤكداً فى مؤلفه "الكاتب" حيث يبرز لنا واقعه النفسي ودفاعه عن هذا الواقع رغم معاناته منه ، أما المرأة فقد شغلت مكاناً مرموقاً ليس فقط فى حياته كرجل ، ولكن فى إنتاجه الفكرى كإنسان ، مرة يرتقى بها عبر أبراج حافلة بالانفتاح والتحرر ، وأخرى فى مؤلفه "المتزوجون" لا يرى فيها إلا مجرد زوجة ، وأم ، وربة منزل ، فيتحفظ على تحررها ، ولكن سريعاً ما يعود إلى الدفاع عن هذا التحرر خصوصاً فى مؤلفه "طوباوية الراقع" . أما قصصه فهى عادة

قصيرة ، ويغلب عليها الجانب الإبداعى ، ونقد المجتمع السويدى تصدر كموضوع رئيسى فى إنتاجه .

ولم تشغله مؤلفاته المسرحية والقصصية عن مزاولة كتابة التاريخ ، فأرخ لحياة ملوك السويد وبطولاتهم وتضحياتهم ، ويعتبر مؤلفه "غوامض التاريخ العالمى" من المؤلفات الجديرة بالإشارة فى هذا المضمار حيث حاول أن ينتفع بمعلوماته فى العلوم التجريبية ودراسته السابقة للطب ، كما يلاحظ بصفة عامة تأثر "سترندبرج" بالعديد من مفكرى الغرب وبمدارسهم .

تأثر بصفة خاصة بـ"نيتشه" (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الذى عرف بدوره واقع المعاناة وحاول تجاوزها بإرادة قوة الإنسان ولكن قادته فى النهاية إلى الجنون ، فى نفس الفترة التى عانى فيها مفكرنا "سترندبرج" من الجحيم الذى جسده كما أشرنا فى رائعته "انفيرنوا" وكأن نهاية قرن وبداية قرن تنعكس فى عقول العمالقة غروباً وشروقاً ، منها ما اهتز ومنها ما صمد ... واستمر موكب الحياة متداولا بايأمه بين الناس ، وأما الفكر الاسكندنافى فتأثر فيه بـ"بروجورش" ، و"جوناس لى" و"نيلسون" السابق الذكر ، ومن الفكر الفرنسى كان تأثير جان جاك روسو ، وقد أفردت له دراسة سابقة فى الستينات ، وكذا تأثره بالمدرسة السأنسيمونية وحددت أبعاد هذا التأثير "فى المجلد الأول من نظريتى عن "أصول السوسيولوجيا ، والاشتراكية ، والدولية " - بالفرنسية صفحة ١٧٨ وما يليها " . هذا إلى جانب تأثير فوريه ، وهوجو ، وزولا ، وكابيه ... ولقد ساعده الفكر الفرنسى الإنسانى على طرح إشكاليات مجتمعه ومؤسساته تحت شعار التكامل بين الدولة والمجتمع فى ظل السلام ، وإسعاد الإنسانية ليس على المستوى الأوربى فحسب وإنما على مستوى البشرية جمعاء . نرى فى تطلعاته مزيجاً من الأفكار الأفلاطونية والسانسيمونية ، خصوصاً فى "طوباوية الواقع" هذه التطلعات دفعت

الكثير من الاشتراكيين السويديين إلى تبنيه لا كمصلح فحسب وإنما كرائد أصيل .

ومع تأسيسه "لمسرحه الباطنى" وتقديم مسرحيات من سنة ١٩٠٧ تعالج النفاق والغش ، والخداع ، والتضليل ، والزيف ، والخوف ، والظنون ، حقق "سترندبرج" هدفاً من أعز أهدافه وهو الغوص فى خفايا الباطن ، وأهم هذه المسرحيات "العاصفة" و"القفاز الأسود" ، كما أبرزت لنا مسرحياته الحياة الداخلية للأسرة وخصائص بنيتها ، فطرح عوامل انفصام الأسرة فى المجتمعات المعاصرة ، وبعمق وتجربة ، وأبرز اتجاهاتها إلى الانحلال والتحرر الجنسى . هذه الأسرة التى نجدها مثلا فى تحفته "رقصة الموت" سنة ١٩٠١ ، تجسدها "الأشباح" لتصور ارتباط الزوجة بزوجها لا عن طريق الحب وإنما عبر حقد دفين متبادل وكراهية مضمرة مشتركة ، وفى النهاية الموت وحده هو الذى يتكفل بحل هذا الرباط ، (بعض هذه المسرحيات ترجم إلى العربية وشخص) .

هذا ولم يقف تأثر "سترندبرج" عند الفكر الغربى بل تأثر أيضاً بالشرق وحضاراته فى بعض مسرحياته ، فنجد فى مسرحية "الظن" أصداءً للبوذية حينما صور الحياة كسراب ، وأكد واقع الألم على أنه هو وحده القادر حين تقبله على تحرير الإنسان من الخوف ، وفى "الطريق إلى دمشق" وقد كتب الجزء الاول والثانى سنة ١٨٩٨ أما الثالث والأخير ففى سنة ١٩٠٤ ، حاول مفكرنا تحت تأثير أرض النبوات ومهد الروحانيات أن يتخلى عن الصيغة التقليدية للدراما ليلقى بجسر ممتد من الطبيعى إلى الماورائية مستغلا الرموز فى شروحه ، ويجسد المسرحية بطل واحد "المجهول" - وقد يكون هو سترندبرج فى حد ذاته - يرتقى به فى تصعيد الدراما مازجاً الزمان بالمكان والحلم بالحقيقة ، والبطل المجهول يسيز ويسير فى طريقه إلى رحلة داخلية فى أعماقه ، يغوص بمعالمها فى بطون الخفايا ، تحت ستار الغموض . كذلك يبرز لنا تأثير حضارتنا

العربية الإسلامية في مسرحيته "حذاء أبى القاسم" حيث استعار هذه الشخصية المعروفة فى أدبنا العباسى بما جر عليها حذاؤها ، يشخص من خلالها واقع مسرحيته هذه ، ولعل دراسات متخصصة فى المستقبل ، عن مدى تأثيرحضارتنا فى الفكر الاسكندنافى تلقى الكثير من الأضواء على إشعاع هذه الحضارة العريقة فى شمال أوروبا.

"أوجست ستردنبرج" أبسط ما يقال عنه أنه كان مواجهاً لنفسه صادقاً معها قبل أن يواجه بها مجتمعه . لقد عايش معاناة ذاته فى أغوارها ، وعرك ضروب الواقع ومنعكساته عاطفياً وأخلاقياً واجتماعياً بصفة عامة ، وبحث عن الحلول مرة من خلال المواجهة ، وأخرى عن طريق التكيف ، وثالثة عبر الغموض والتغميض . وفى كل مرة يخرج لنا بتجربة حية يجسدها فى رائعة من روائعه المسرحية أو القصصية والسيرية ، لقد عانى مفكرنا أيضاً من نقاد عصره وقسوتهم عليه ، لأنه فى تعريته للواقع هو فى الحقيقة قام بتعرية الجميع ، ودمر حاجز الصمت بقوة المكاشفة الصريحة الواعية ، وما مسرحه الباطنى إلا محاكمة جزئية للخلفيات المقنعة فى مجتمعه ، وفى دخائل أسره ، لقد حاول بعض نقاده إسكاته عن طريق المغالاة فى تجريحه أمام معاصريه ، ولكن المعاصرة حجاب نسبى ، آل فى النهاية إلى عكس ما ارتجى من ورائه . فبقدر المغالاة فى إسكاته كانت قوة تفجير طاقاته ومنطلق شهرته ، وهكذا ذهب ناقدوه بنقدهم ، وبقى "ستردنبرج" الذى خلد بنو وطنه ذكراه بتأسيس "جمعية " لحفظ تراثه "باستكهولم " تضم كبار الأكاديميين السويديين إلى جانب مفكرين أجانب كانوا قد تعرضوا له بالبحث والدراسة . وقد لاحظت بعد اختيارى عضواً فيها كم أصبح هذا المفكر عزيزاً على قومه ، وعزيزاً علينا أيضاً بتخليده لانعكاسات فكرنا الحضارى العربى عند أبناء الشمال ، فقد كان رسول معرفة لنا بين أهله ، من خلال "الطريق إلى دمشق " و"حذاء أبى القاسم" بل فى النهاية أصبح من خلال مسرحه العالمى عزيزاً ومقدراً فى كل مكان كما هو الحال دائماً بالنسبة لعظماء

الرجال . وعمالقة الحضارات ، لقد انتهى "ستردنبرج" بعد أن صارع سلبية الإنسان من الداخل سحرياً لغموضه وكاشفاً لمراته المظلمة وأنفاقه المجهولة ، ولقد كلفه هذا كما رأينا سر المعاناة بمختلف دروبها وقنواتها ما جعله يساكن الجحيم ويتعايش مع نيرانه .

أراد أن ينفذ إلى أعماق النفس البشرية ليترجم لنا جانباً من خفاياها ملتقياً فى ذلك مع عملاق آخر "سيجموند فرويد" وإن تنوعت بينهما الطرق وتباينت وسائل الاقتراب ، ولكن جمعهما الغوص فى أغوار الإنسان حتى القاع ، وكلاهما انعكست عليه آثار مجازفته الرهيبة حينما أراد أن يمارس العوم فى بطون هذا الكائن المتميز العجيب فعانا بقدر معاناته نوعية الشقاء وتمرده الفريد حتى على ذاته.

فرويد إذن هذا العملاق الذى يلتقى فى همومه مع "ستردنبرج" كما يلتقى مع من سبقه فى عرضنا من أمثال نيتشه ومن أوردناهم قبله كنماذج لنهاية عمالقة فى حضارة الغرب سوف نقرر له الفصل التالى من حوارنا .

* * *

الفصل العاشر

فرويد ونهاية عملاق

"سيجموند فرويد" غنى عن التعريف ، فقد شق فى الفكر الإنسانى المعاصر تياراً متميزاً تمحور حول "التحليل النفسى" للكشف عن أغوار الإنسان والغوص فى خبايا اللاشعور . دون شك هو مؤسس التحليل النفسى أو العميد المتميز له ، بل وعلى لسانه يؤكد أن الإنسانية جرحت فى نرجسيتها مرات ثلاث ، وكل جرح أضعف من ضلال ووهم الإنسان ... الأول والثانى قام بهما "كوبرنيك" (Copernic) والثانى "داروين" (Darwin) ، والثالث هو "فرويد" بالتحليل النفسى.

فرويد لا يمكن عزل حياته عن نتاجه فقد انعكست حياته على إنتاجه كما انعكس هذا الانتاج بدوره على فترة تجاوزت النصف قرن وما زالت مغطية بضجيجها وضوضائها مع أو ضد فرويد ، فمن هو فرويد وباختصار ؟

سيجموند فرويد ولد فى ٦ مايو ١٨٥٦ من الزوجة الثالثة لأبيه وكانت تصغره بعشرين عاماً ، وكان والده تاجر طوّاف ليس بالغنى ولا بالفقير يهودى ... هذه اليهودية التى أثرت فى الطفل فرويد وقبعت كامنة فى لا شعوره . فهو الذى يذكر لنا وما زال طفلا أنه أثناء تنزهه مع والده فى يوم من أيام العطلات . وكان والده يرتدى لباساً يتناسب مع يوم العطلة وقبعة أنيقة ويتمشى مختالاً وبجانبه طفله ، وإذا بجرمانى يلقى بقبعة أبيه على الأرض .

فما كان من والده إلا أن تناول وبهدوء القبعة من الأرض ثم أعادها فوق رأسه وهو يقول لطفله : "هلم ، لندع لهم الطريق" ، وقد كان هذا هو رد الفعل الوحيد الذي استقر فى لا شعوره كطفل ، وظل يلاحقه كبتياً - باعترافه فى سيرته - طوال حياته كدلالة متميزة على تحقير اليهودى ،

وإذلاله ، وهن نتساءل هل هذا بدوره يمكن أن يحسب من بين الحيثيات التى أهلت فرويد وغذته لمزاولة التحليل النفسى فيما بعد لمجتمعات بورجوازية عنصرية أراد أن يكتشفها من الأعماق ؟

أما فرويد التلميذ فلم يكن متفوقاً فى العلوم التجريبية والرياضيات ، بل كان يعانى من الضعف فيها بينما كان قوياً فى اللغات والآداب ... انجذب إلى داروين وقد تأثر به ليتخذ من الطب دراسة جامعية وقد تأثر أيضاً بـ "بورن" (Bôrne) وفى دراسته الطبية انجذب إلى الطب النفسى بفضل الأستاذ "تيودور مانيير" (Th. Maynert) ، كما تأثر بغيرهم نخص كمثال "جون ستوارت ميل" الذى تأثر بأفكاره حول تحرير المرأة .

وتخرج من الطب عام ١٨٨١ وإن كان قد وجد صعوبة فى الطب العام فتجاوز الامتحان بدرجة مقبول ، ورسب فى الطب الشرعى ولا يمكن هنا أن ينكر دور الأستاذ "بريك" (Brucke) فى احتضانه لفرويد ، فهو الذى أسند إليه العمل كمساعد فى الجامعة للأعصاب ، وحصل على منحة لباريس ليتدرب تحت إشراف "شاركو" (Charcot) وليتخصص فى الهيستريا والتنويم الاصطناعى "الابنوتيزم" ، ولقد كانت انطباعات الشاب فرويد عن باريس سلبية فقد بدت له تصرفات أهل باريس غريبة ولم تعجبه الباريسيات ، وقد تمت قبل ذلك خطوبته مع "مارتا برنايس" التى تزوج بها سنة ١٨٨٦ بعد سنوات من الخطوبة كما أنه تتلمذ فى تدريباته إلى جانب "شاركو" على "برنهايم بنانسى" كما تتلمذ على "بروير" وتذكر عادة حالة "أنا" (Anna) من الحالات التى اهتم بها فى هذه الفترة ، فى إطار معالجته لمرضاه .

وبرزت عند فرويد رؤية الهيستريا واضطراباتها على أساس جنسى ، وبشكل لا شعورى ، ومارس الطب ابتداءً من ١٨٩٥ ، ونشر مع "بروير" دراسته عن الهيستريا . وحرر لصديقه "فيلياس" محاولة عن "علم النفس" ، وتوفى فى هذه الفترة والده ١٨٩٦ ، وكان حينما يقوم

بدراسة مرضاه من خلال التعامل مع اللاشعور والاستعادة ، أن يقوم بدراسة ذاته هو أيضاً ، ونتيجة لذلك نشر فى سنة ١٩٠٠ "علم الأحلام" بمساهمة "فيلياس" ، ومن (١٨٩٧ - ١٩٠٠) وضع دراسات منها **السيكولوجية المرضية للحياة اليومية نشرت سنة ١٩٠١ ، وكلمة الروح وعلاقتها باللاشعور نشرت سنة ١٩٠٥** ، إلى جانب محاولات ثلاث عن نظرية الجنس ، كما أنه قام بترجمة لأعمال أستاذه "شاركو" من الفرنسية إلى الألمانية ، ومن بين من تأثر بهم أيضاً نذكر "نيتشه" ، و"شوبنهور" و"تاين" وغيرهم .. ومن الدراسات التجريبية له فى هذه الفترة نذكر حالة "دورا" (Dora) هذه الحالة التى أكدت حضور فرويد النظرى والتجريبى فى التحليل النفسى خصوصاً فيما يعنى الأحلام ، فالحلم كما يراه آنذاك يسعى فى الواقع لتحقيق رغبة مقهورة كذلك دراسته لحالة "إرنا" . وفى الهيستريا يرى فرويد أن هناك رغبتان متناقضتان .

ونتابع مسيرة فرويد بعد تجربته مع مدرسة نانسى وعلاج الهيستريا وتوظيفه للتنويم الاصطناعى لنرى أنه - وعلى حد اعترافاته الصريحة التى نلاحظ حضورها بإجماع المهتمين بسيرته وعلى رأسهم "أرنيست جونيس" صاحب كتاب "حياة وأعمال سجموند فرويد" فى ثلاث مجلدات (١٩٥٣ - ١٩٥٨) ، وكذلك دراسة "آسون" ، وحتى فى البحث المختصر والذى ظهر حديثا لـ"جكار" عن فرويد ١٩٨٣ ، الكل يجمع على أن سيجموند فرويد كان يتعاطى الكوكايين وإن كان بكميات صغيرة لمحاربة الخجل واكتساب الشجاعة والثقة ، نظراً لأنه قد ثبت أن الجنود كانوا يتعاطونه فى الحروب للتحلى بالإقدام والشجاعة ، ولم يكتف فرويد بتعاطيه للكوكايين ، بل كثيراً ما كان ينصح به مرضاه ، خصوصاً وأن الكوكايين آنذاك لم يكن ممنوعاً .

ذهب فى حماسه له إلى حد وضع دراسة فى سنة ١٨٨٤ عنه تحمل عنوان (Dela Coca) **عن الكوكايين** واصفاً له بأنه دواء له مفعول

سحرى فى العلاج وبدأ بوصفه لأحد مرضاه الذى كان يعانى من إدمان المورفين وهو "أرنيست فون فليستشل" (Er.Fon Fleischl) فأعطى له الكوكايين كبديل يتخلص بفضله من الإدمان على المورفين .

ولكن الذى حدث أن مريضه تحول أيضاً إلى مدمن على الكوكايين فأضاف إلى إدمانه السابق إدماناً آخر وهو إدمان الكوكايين ، وهوجم بهذه المناسبة إعتباراً أنه أضاف إلى إدمان الخمر ، وإدمان المورفين ، إدماناً ثالثاً وهو الكوكايين ثالوث الإدمان البلائى للإنسانية ، ولكن فرويد أجاب على من اتهموه وهاجموه عام ١٨٨٧ أن الكوكايين فى حد ذاته ليس موضع إدمان وإنما المدمن هو شخص ضعيف الإرادة مؤهل للتأثير بالتعود والاعتياد ، وبالتالى الإدمان . ولقد ميز بين "الكوكايينوفوبى" و"الكوكايينومانى" . ولقد كان لهذا تأثيراً على مسيرة "فرويد" واختياراته ، ومن هنا أقلع إلى العلاج بالتحليل النفسى إيماناً أن لكل دواء مضار جانبية بل يذهب "بيرن فيلد" أن هذا هو الذى دفع بـ "فرويد" إلى التحليل النفسى كبديل للعلاج الكيمائى ، ويلاحظ أن "بروبير" يعتبر من أوائل من طبقوا التحليل النفسى ابتداء من سنة ١٨٨٠ ، هذا التحليل النفسى الذى ارتبط بعد ذلك أو تمحور حول "فرويد" إنطلاقاً من دراسته حول الهيستيريا وارتباطها بالعلاقات الجنسية كما نشر سنة ١٩٠٨ **"المعنويات الجنسية للعالم المتحضر والعصاب فى الأزمنة الحديثة"** ، ويلاحظ أن فرويد تحفظ على الحرية الجنسية خصوصاً فى أمريكا وإن كان يعتقد أنه لم يستغلها ، ولم يتمتع بها شخصياً فى حياته ، ولو وقفنا قليلاً مع حياته الحميمية هذه سنكتشف أن "فرويد" كان - وهذا شئ غريب - رغم أصالته العلمية متطيراً ويتشاءم من يوم ١٧ فى الشهر بل سيطرت عليه بعض الأفكار التشاؤمية والتطيرية خصوصاً فكرة أنه سيموت فى عمر ٦٢ سنة ، وبالتحديد سنة ١٩١٨ ، وحينما عبر هذا العالم دون أن يموت قال لصديقه "فرانكزى" إنه لم يعد يثق فى الخوارق ولا يؤمن بها . كما يلاحظ أيضاً بالنسبة لحياته الحميمية أنه

أطال فترة خطوبته ، بل كانت أم خطيبته تنظر إليه بسخرية وأنه غير مؤهل لبناء أسرة . ولقد وافقت عليه بصعوبة باعتباره فتى بلا مستقبل ، بل وليس له نفس الدين . ولقد اتهمها "فرويد" بالسيطرة بل كثيراً ما كان يداعب زوجته حتى وفاته حينما يجدها لا تقرأ فى النهار ويطلب منها لماذا ؟ لتجيبه : هكذا قالت لى والدتى النهار للعمل ، ومن طرائف "فرويد" عبر حياته الحميمية أنه فكر أن يعمل جارسوناً فى مقهى يقدم للزبائن المشروبات وما يطيب لهم . وهذه الفكرة داعبت أيضاً "بروبير" ، ومن سمات شخصيته أنه كان غيوراً على خطيبته بل كثيراً ما كان يمنعها من أن تخاطب ابن عم لها كان تربطه بها صداقة ، وهو الفنان الموسيقار "ماكس مايير" أن تذكره حينما تحدثه باسمه وأن تقول له "السيد" ، كما كانت تلاحقه الغيرة من صديق لابن عمها أيضاً وهو "فاهل" لأنه كان جذاباً وكان متعلقاً بخطيبة "فرويد" وحينما علم بخطوبتها تأثر إلى حد البكاء . واستكمالاً للصورة الحميمية لحياة فرويد يمكننا أن نقول إن فرويد كان ملتزماً بيهوديته فى زواجه ، ولقد أنجبت له زوجته ستة أطفال وكانت بحق سيدة دار وهو زوج محافظ بورجوازى بما فى معنى الكلمة من ثقل ، ويذكر فى إطار سيرته أن علاقته الجنسية بزوجته توقفت فى سن الأربعين وهى كانت سريعة الحمل ، إلا أنه يلاحظ ما دفع فرويد من التوقف عن العلاقة الجنسية ما نلاحظه من تركيزه علي أهمية الطاقة الحيوية وأن الممارسة الجنسية الكثيرة تستنزفها ، بل ربط بين بعض العوارض المرضية النفسية وبين المغالاة الجنسية ، ويخص هنا دراسته عن المعنويات الجنسية للعالم المتحضر والعصاب فى الأزمنة الحديثة ، وقد تعرض أيضاً للحرية الجنسية فى أمريكا ، غير أنه كان يتحفظ باعتباره أنه شخصياً لم يمارس هذه الحرية في حياته ، بل أعطى أهمية فى هذه الحياة إلى جانب أسرته وزوجته لعلاقته المهنية والعلمية كعلاقته بـ "فلييس " الطبيب البرلينى ، كما أنه أسس "جمعية التحليل النفسى" بڤيينا سنة ١٩٠٢ ، وكان يلقى المحاضرات التى لم تلق إقبالا وتشجيعاً ، وكان يعقد حلقات كل يوم

أربعاء تجمعه مع رفاق أمثال "ستيكل" و"ريتلر" و"كهان" . و"فرنكزى" و"ادلير" ، وكان لهذه الحلقات سكرتير فى إطار جمعية التحليل النفسى . وهو فى الأساس كان طالباً فقيراً ، ونعنى به (Auto-Rank) الذى أصبح فيما بعد غنياً عن كل تعريف . وبلغ أعضاء هذه الحلقات سنة ١٩٠٨ : ٢٢ عضواً ، ويرى "فروم" أن "فرويد" كان يسعى من وراء تأسيسه لهذه الجمعية أن يصبح رائداً لحركة ، قد لا تكون بالضرورة سياسية وإنما تحت ستار التحليل النفسى أو يريد أن يلعب دور موسى التحليل النفسى ، وليس موسى التوراه . وفى سنة ١٩٠٦ بدأ "فرويد" يراسل "كارل جوستاف يونج" ، وكانت اهتماماته منصبة على الهيستيريا والأحلام والجنس . وتعتبر دراسته عن تفسير الأحلام من الدراسات الجادة ، وإن كانت قد ووجهت بالنقد حين ظهورها . وكان "يونج" يصغره بحوالى عشرين عاماً . ويزاول العمل فى مستشفى بـ" زيورخ" كان يديرها "بلولير" .

ولقد زار (Young) "فرويد" الذى كان يكرر له : "إذا كانت أنا موسى فأنت المسيح لاستعادة أرض الميعاد . ونعنى بها "التحليل النفسى" ، عرفت علاقتهما التعاطف كما عرفت الخصام ، ويلاحظ أن ردود أفعال "يونج" فى بعض الأحيان كانت عنيفة إلى حد أنه خاطب "فرويد" متحفظاً على معاملته لأتباعه بأنه يعاملهم كما تعامل العبيد . إلى جانب صفات أخرى سلبية نعت "يونج" بها "فرويد" . ولقد استقال من جمعية "فرويد" عام ١٩١٤ بعد أن أسست فى ١٩٠٧. بـ "زيورخ" . بعد أن أسس فى سنة ١٨٠٧ جمعية فى زيورخ باسم "فرويد" . وكان "فرويد" يعتز بها لأن "يونج" هو فى الواقع لم تأته من العراء وإنما والده كان راعياً للكنيسة . وفى سنة ١٩١٠ تأسست الجمعية الدولية للتحليل النفسى ، وباتساعها كانت الانشقاقات التى لم يكن "يونج" إلا حالة من بين حالاتها ، فقد انشق قبله "شتيكل" كما انشق "آدلر" . وبعد ذلك تبعهم "رانك" ثم كان انشقاق أقرب المريدين ، ونعنى به "ساندور

فرانكزى" . ومع هذا لم تنقطع الصلات نهائياً ، أو على الأقل فيما يعنى "يونج" الذى ربط الصلة بـ "فرويد" فى سنة ١٩٢٤ بخصوص مريض كان يعالجه "فرويد" ، وفشل فى علاجه وكان ديبلوماسياً يهودياً ، وكان أيضاً يعالجه "يونج" . ويلاحظ فيما يعنى "فرويد" أنه كانت له مواقف ربما لعبت دوراً فى انفضاض أتباعه من حوله واحداً تلو الآخر . على سبيل المثال لا الحصر موقفه من الجنس ومن الدين ، ونظرته للحرية الكاملة والتربية ، الوجدان ، التضاد بين الشعور واللاشعور ، غريزة الحياة وغريزة الموت . بل حسب "أرنس جونس" أن "فرويد" كثيراً ما كانت تشم من خلال مواقفه انعكاساته الذاتية ، بل يرى "جونس" أن "فرويد" كان نسوى ورجولى فى نفس الوقت ، كما أنه تأثر بالحرب العالمية الأولى وأثرت على فكره . بل يعزى إدخال النرجسية فى التحليل النفسى ومفهوم الكراهية كغريزة ، وأن التدمير لا يدخل فى الليبيدو الجنسى ، وإنما يراه كغريزة فيما وراء مبدأ اللذة . كذلك تشم رائحة مناقشاته مع "آينشتاين" بخصوص الحرب ، وغريزة التدمير أو غريزة العدوان كما حددها "آدلر" ، ويرى أنه حين وضعه لدراسته عما وراء مبدأ اللذة (١٩١٩ - ١٩٢٠) تأثر بملاحظاته لابن ابنته الصغير فى هامبور وعبثه بلعبه ، وإلقائه بالأشياء ، وكيف أن هذا العدوان تحول إلى لذة ، والتلذذ بالشئ المدمر ، وعودة الكائن إلى حالة ما قبل التكوين كما قال "سانت بوف" . فالطبيعة هى التراب والرماد ، وجرانيت القبر ، وما الحياة إلا حدث عابر . الطبيعة قبل وبعد الممات . الحياة كما يرى "بيشى" هى مجموعة القوى المقاومة للموت . بل يلاحظ أن الموت شغل حيزاً عريضاً من تفكير "فرويد" ، بل تسلط عليه ، إذ كان دائماً حين وداعه لـ"إرنس جونس" يقول له : "ربما لا نلتقى بعد ذلك" . وهكذا التناتوس أو غريزة الموت كانت تعايش "فرويد" ، بل حينما أغمى عليه سنة ١٩١٢ واستيقظ كانت أول كلماته عن الموت ، بل كثيراً ما يتأثر حين سماعه لموت أحد أصدقائه ، ومن باب أولى أعزائه كوفاة ابنته "صوفيا" ، وابن ابنته سنة ١٩٢٣ ، وكان عمره

أربعة أعوام ، وفى نفس العام أجريت له عملية السرطان فى ذقنه كمنطلق لعمليات جراحية أخرى توالت وتجاوزت الثلاثة والثلاثين إذ لازمه هذا السرطان الخبيث ستة عشر عاماً بآلامه الرهيبة . ومع هذا لم يتوقف النشاط الفكرى والعلمى لهذا العملاق المتعايش مع آلامه ، فضلا عن معاناته النفسية التى انطلقت به منذ بداية القرن "سايكو نيفروز" . وتساكن مع هذه المعاناة النفسية ما يقرب من ثلاثة وثلاثين عاماً . وثلاثون عملية جراحية ، وثلاثة وثلاثون عاماً من المعاناة النفسية . ومع هذا لم يستسلم "فرويد" ، وإنما حاول أن يستفيد ، بل ويوظف هذه المعاناة لفهم وتفهم الآخرين ، فيما يعنى الليبيدو عبر مراحله الثلاث : الجنسية ، والنرجسية ، والثالثة حيث الموت ينتصر على الحياة . ويرى "فرويد" أن الاكتشافات الكبرى للإنسانية لها معالم ثلاث ، كل معلمة تعنى القهر لنرجسية من نرجسيات الإنسانية : المعلمة الأولى لمعلمة "كوبرنيك" حينما قضى على نرجسية تمركز الأرض وأنها ليست مركز الكون ، وإنما دائرة وتدور . و"داروين" صاحب المعلمة الثانية حينما قضى على نرجسية الإنسان باعتباره سيد الكائنات ، وزعم أن ما هو إلا حلقة من حلقات التطور ، وجاء "فرويد" ليقهر النرجسية الممثلة فى المعلمة الثالثة بفضل التحليل النفسى ، وأن نرجسية الشعور ليست بسيدة نفسها ، فهناك عمليات اللاشعور ، وبالتالى حسب "فرويد" هذه المعلمات الثلاثة لقهر النرجسيات ، نرجسية الأرض ، ونرجسية الإنسان سيد الكائنات ، وأخيراً نرجسية الإنسان سيد نفسه . هى فى الواقع الاكتشافات الكبرى للإنسانية كما يراها "فرويد" .

واستمرت حياة "فرويد" وإن كانت قد عرفت مع صعود النازية فى ألمانيا مستجدات كان لها أثر فيما تبقى من حياة "فرويد" ، بمعنى السنوات الأخيرة ، وهى سنوات المعاناة . إذ من المعروف أن النازية اتخذت مواقف من اليهود من بين ما ترجمت فى هذه المواقف حصرهم وحصارهم ليس فقط جسدياً وإنما فكرياً فبدأت تحرق مؤلفات اليهود ،

وجاء دور "فرويد" لتحرق مؤلفاته ، وكانت الحيثيات التى أعطيت لهذه المحرقة أن هذه المؤلفات تحرق لما تقدمه من "لا مبالاة مدمرة للروح وللحياة الجنسية ، وبالتالى باسم التسامى والنبل الإنسانى تحرق كتب "سيجموند فرويد" . وحينما توصل بهذا القرار من المسؤولين أجاب "فرويد" متسائلا : "ياله من تقدم هذا الذى نمارسه فلو أن هذا الذى حدث كان فى العصور الوسطى لما اكتفى بحرق مؤلفاتى ، وإنما كنت شخصياً فى المحرقة . فمن هذه الزاوية هناك تقدم ملحوظ حيث اكتفى بحرق كتبى" ، وكان ذلك فى مايو ببرلين سنة ١٩٣٣ بل هناك بعض المختصين فى سيرة أسرة "فرويد" يزعمون أنه فعلاً لم يكتف بحرق كتب "فرويد" ، ولم يحرق هو لما يتمتع به من شهرة ، وإنما ألقى بأربعة من إخوته فى محارق النازية بعد ذلك فى سنة ١٩٤٣ .

ولقد فكر "فرويد" أن يضع حداً لحياته لولا مساندة وفيه "أرنست جونس" ووفيته المخلصة الأميرة "ماريا بونابارت" فقد سانداه فى محنته ونصحاه بالمنفى الاختيارى خارج النمسا مع أسرته .

وقبل رحيله من النمسا التقى عملاقنا مع "لو- أندرياس - سالومى" وقد بلغت من العمر عتياً فقد جاوزت الستة والسبعين عاما سنة ١٩٣٧ ، بعد أن عرفت فى شبابها التألق كرفيقة للشاعر الكبير "ريلكى" ، ثم من بعده رفيقة طريق لـ"نيتشه" وتتلمذت على "فرويد" ، الذى حينما ماتت إبنتها وكان قد التقى بها لأول مرة سنة ١٩٢٨ ، هو كان يعانى من سرطانه وهى تعانى من سقوط شعرها عقب مرض شديد . ودار بينهما حديث فى التنزه عبر نزهة ككهلان حول الحضارة ، وأكدت "لو" أنها استنفدت أغراضها - تعنى حضارة الغرب - وأن أجناساً أخرى سوف تحمل المشعل . وذكرها "فرويد" بما قاله العملاق "نيتشه" باسم الأمل والتفاؤل فاهتزت "لو" ، وذكرها بما فى أعماقها تحملها كذكريات لهذا الإنسان ، إنسان التساكن مع الآلام ، إنسان الإنسان الخارق ، **إنسان**

وإنسانى للغاية ، ذكرها بـ"نيتشه" لتستعيد المقاومة فى نهاية العمر ولا تندم على الحياة ليصبح الموت النصر الأكبر ، ومن المعروف أن "فرويد" كانت له أيضاً علاقات بـ"آينشتاين" ، كما أنه رفض أن يشارك الشيوعيين أفكارهم ، بل كان متشائماً من مساهمة السوفييت فى إصلاح العالم وإنقاذ البشرية ، ولهذا كان يكرر دائماً : **"سأبقى ليبرالى بطريقتى القديمة"** .

لقد عانى "فرويد" ، بل واكتسب من معاناته لقاحاً وتحصيناً جعله يتواجه معها على كل المستويات . فمن المعروف أنه ولم يتجاوز بعد الثامنة والثلاثين من عمره ، عرف أزمات القلب أو لغط القلب بعبارة أدق "تاكى كاردى" بمعنى اضطراب فى ضربات القلب ، ومع هذا أصبح أباً لخمسة أطفال وزوجاً يسهر على هذه الأسرة ويرعاها ، ولم تقف به المعاناة عند حد اضطرابات القلب ، بل أيضاً عرف اضطرابات أخرى منها ما وصل به إلى السرطان ، سرطان الذقن الذى لاحقه سنة ١٩٢٣ ، وأجرى عدة عمليات جراحية للتخلص منه وعاد إليه ليلاحقه عام ١٩٣٦ . وكان كما أشرنا من قبل يفكر كثيراً فى الموت مما حدى بأحد المختصين فى سيرته "ماكس تشير" (Max-Schur) أن يضع مؤلفاً بعنوان "الموت فى حياة فرويد" بعدة لغات ونقل إلى الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

هذا المعانى ، من الغريب أنه كان مدمناً على التدخين بل كان يكرر : لا حياة بدون تدخين ، إلى جانب المعاناة لألم فى الصدر ، بل ولم لا ؟ عملاق التحليل النفسى على حد تعبير أقرب المقربين إليه وهو "أرنست جونس" أن كل أنواع المعاناة هذه أقلعت أساساً كعوارض خاصة "للبسيكو نيفروز" الذهانية العصابية التى كان يعانى منها "فرويد" . وظهرت لديه فى شكل أزمة فى إبريل ١٨٩٤ لتعاوده بعد (١٨٩٣ - ١٨٩٦).

فعملاق التحليل النفسى ربما من بين الأسباب التى دفعته إلى هذه

الممارسة معاناته فى حد ذاتها إلى جانب العوامل الأخرى . وكذلك يلاحظ أنه كثيراً ما كان يغمى عليه وتنتابه أزمات متعددة الألوان . هذا المعانى لم يصل فقط إلى أن يتصدر كرائد من رواد الفكر فى القرن العشرين فيما يعنى تخصصه . وإنما تم ترشيحه لجائزة نوبل فى ٢٨ يونيو ١٩٣٨ فى الوقت الذى بدأت رياح الرحيل تهب لتدفع بـ"فرويد" خارج النمسا نحو لندن ، ولا يمكن أن ينكر فضل الرئيس "روزفلت" فى تسهيل هذا الرحيل وحسن المعاملة له . وحينما علم "فرويد" بأنه سيمنح فيزا الخروج كتب إلى ابنه "إرنست" الذى كان يعيش فى لندن مسجلاً أن هناك أملان باقيان له فى هذه الأيام الحزينة ، الأول : هو أن أراكم وكلكم بجانبى ، أى أسرته .

هكذا يقول "فرويد" ، والثانى : هو أن نموت أحراراً ، وطلب من "فرويد" أن يوقع على وثيقة لأخذ الفيزا مؤذنة بخروجه من ألمانيا ، وهذه الوثيقة كتب فيها أنه كان يعامل معاملة طيبة من النازية والجستابو ، فقال لمسئول الأمن الذى طلب منه ذلك وحمل إليه الوثيقة : "هل فى إمكانى يا سيدى أن أضيف كلمة إلى ما كتبتم ؟ وهى أننى أوصى بالجستابو وبكل توادد لكل البشر" .

وهكذا رحل "فرويد" من النمسا متجهاً إلى لندن بعد حياة حافلة بالإنتاج والعمل والمواجهة . وقد أشرنا إلى العديد من مؤلفاته ونضيف إليها على سبيل المثال "**السيكولوجية المرضية فى الحياة اليومية**" سنة ١٩٠٤ ، "**تحليل الهيستيريا**" سنة ١٩٠٥ ، **تحليل الفوبيا لطفل فى سن الخامسة**" سنة ١٩٠٦ ، "**ملاحظات تحليل نفسى** حول **السيرة الذاتية لحالة بارانويا**" سنة ١٩١١ ، "**الطوطم والطابو**" سنة ١٩١٣ ، "**مدخل إلى التحليل النفسى**" سنة ١٩١٧ ، "**تاريخ عصاب طفلى**" سنة ١٩١٨ ، "**الأنا والهو**" سنة ١٩٢٣ ، "**مستقبل سراب**" سنة ١٩٢٧ ، "**متاعب فى الحضارة**" سنة ١٩٢٩ ،

"لماذا الحرب؟" سنة ١٩٣٢ ، نعم رحل "فرويد" إلى لندن فى يونيو ١٩٣٨ ، منذراً بالرحيل الأخير من عالم المعاناة بعد عام . وفى لندن كان – وعلى حد تعبيره : السرور ممزوجاً بالأحزان لتركه هذا السجن الكبير الذى أحبه وهو فيينا ، وهناك فى لندن التقى مع باقى من يعيشون فى المنفى أمثال "زويك" و "دالى" الفنان الكبير الذى اعترف "فرويد" بعد التقاءه به أنه قد غير رأيه فى السريالية وكذلك "مان" . وكان فى لندن يستقبل بعض المرضى فى إطار التحليل النفسى ، ويكتب فى الجزء الثالث من مؤلفه "موسى والتوحيد" ، إلى جانب استكماله لملخصه فى التحليل النفسى الذى لم ينته منه فى سنة ١٩٣٨ . وحينما شعر بقرب الرحيل من هذه الدنيا كان من قراءاته المفضلة قصة "راشيل برداخ" ، "الإمبراطورية والحكيم والموت" التى تنتهى بالقول : "آخر سكان العالم العادى الخالى من كل المخلوقات الحية البطل يموت فى ليلة جليدية بعد أن تخلى عنه الجميع" ، وما هى إلا شهور حتى عاوده سرطان الذقن المزمن ، بل كانت تنبعث منه روائح كريهة لدرجة أن حيوانه المدلل "شوشو" لم يتحمل هذه الرائحة العفنة ، وابتعد عن سيده ، وكان ينطوى فى ركن بعيد عن المكتب ، بعيد عن "فرويد" سيده الذى كان ينظر إليه ، إلى هذا الأليف بحزن عميق ، وكأن لسان حاله يقول له : حتى أنت يا "بروتس" ، وهكذا وصل "فرويد" فى وحدته هذا العملاق المتحدى إلى مرحلة المأساوية الرهيبة ، وذلك حينما صعبت عليه القراءة ، وكانت آخر قراءاته "جلد الآلام" لـ"بلزاك" . تكالبت عليه الهموم والأمراض وعاودته أزمات القلب بدورها فى أثناء سفره إلى لندن فى سنة ١٩٣٨ ، وما تلاها ، وفى ٢١ سبتمبر أى قبل وفاته بيومين من سنة ١٩٣٩ وكان "تستشير" طبيبه إلى جانب سريره ، سأله "فرويد" قائلا : "عزيزى "تستشير" لعلك تتذكر محادثاتنا الأولى ، وقد وعدتنى أنك لن تتخلى عنى فى اللحظات الأخيرة ، والآن كل شئ يعنى الآلام المتصلة ولم يعد للحياة أى معنى يستحق الذكر" . فرد عليه "تستشير" أنه لم ينس وعده . كلمات قليلة

قبل لحظات الموت تعنى الكثير بالنسبة لعملاقنا الذى زعم أنه شرح كل شئ وقادر على أن يغوص فى الأعماق دون كلل ، وأنه احتوى عقبة الإنسان الكبرى وهى اللاشعور ونرجسيته التى تجاوزها بالتحليل النفسى . هذا "فرويد" العملاق يعلن لنا فى نهايته أنه لم يعد للحياة أى معنى يذكر . وكان من الأولى وهو المنبهر بهذه الحياة والمركز عليها باعتبارها الأولى والأخيرة ، وجعل كل شئ من الإنسان وإليه . كيف يفسر هذا الانهيار المقنع ، الذى لم يتمالك طبيبه إلا أن يجامله وأن يستجيب لرغبته بإعلام ابنته "آن" ، بتفسير هذا الاختيار الرهيب لرجل بدأ يتعامل مع الحقيقة ، فكشف عنه الغطاء ، فأصبح بصره حديداً ، وعرف حقيقة الدنيا التى كثيراً ما ركز عليها وأعطاها الأولوية ، وهى فى الواقع بالنسبة للمؤمن لا "لفرويد" تعنى مجرد بلاء وكبد وكمد ولهو ولعب ، يكتشفها المؤمن بنور قلبه فى بداية الطريق لا فى نهايته كما اكتشفها "فرويد" الذى نراه بهذا التعبير ، الذى نراه يعلن لطبيبه بطريقة غير مباشرة بل ويطلب منه صراحة أن يضع حداً لآلامه وذلك بمضاعفة الجرعة ، جرعة المورفين بطريقة تنهى كل شئ .

واستجاب طبيبه لذلك بعد أن أعلم ابنته ومنحه الحقنة القاتلة لوجوده ، والتى تضع حداً لآلامه أيضاً ، فتناول "فرويد" جرعة حقنة المورفين المضاعفة وغاب عن وعيه ليدخل فى سكرة عميقة ثم كررت له الجرعة مرة أخرى فكان الإغماء وكانت النهاية ، وذلك فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩ . وفى صباح ٢٦ سبتمبر حرق "فرويد" حسب وصيته ليتحول ما تبقى منه إلى رماد وضع فى مزهرية وهى إناء قديم يونانى أهدته إليه الأميرة "ماريا بونابارت" وهو معد أساساً للورد والزهور ليوضع فيه "فرويد" و"إرنس جونس" الأليف الرفيق ألقى كلمات الوداع الجنائزى. وشارك الكاتب "زويك" بعرض عنه كمغامرة إنسانية كبرى . وهكذا توالت المراثى عن هذا العملاق لتبرز المكانة الكبرى التى كان يشغلها بين معاصريه فأبّنه الكثير من فلاسفة ومفكرى العصر أمثال "ميشل فوكو"

الذى اعتبره ملتقى انصبت فيه كل معطيات الطب النفسي للقرن التاسع عشر ، و"توماس مان" الذى اعتبره أحد الدعائم التى تعتمد عليه الانثروبولوجيا المعاصرة ، و"وليام رايش" الذى التقى به فى سنة ١٩١٩ واعتبره شخصية تتحلى بالحيوية والحماس ، ثم التقى به بعد ذلك مراراً وتكراراً وكان يكن له مشاعر التقدير ، و"تيودور رايك" الذى لم يخف تقديره لما قدمه "فرويد" للإنسانية وكتب عنه أيضاً كما كتب عنه الكثير أبحاثاً ومؤلفات . وبلغات متعددة ، وحتى "سارتر" لم يخف أنه كان رفض "فرويد" فى شبابه فلا يقال إنى رفضته لأنى فرنسى وأنه غير ذلك ، ولكن لم ينكر تقديره له وغ ـهم ، سواء أكانوا من العارفين له من البداية أو ممن أنكروا عليه العملقة وعادوا ليعترفوا له بها ، ومع هذا فهناك إجماع على تصدر "فرويد" كقدرة من قدرات العصر الذى وصل بتفجير طاقات العقل البشرى ليحلل إرادة الإنسان شعورياً ولا شعورياً . هذا "فرويد" المتصدر تبقى كلماته الأخيرة وهو يحتضر رمزاً يؤكد حدود الإنسان وأنه مهما بلغ من القدرة فلا يمكن أن يكون إلا هذا الضعيف بنص القرآن ، والذى أراد له الله سبحانه وتعالى التخفيف : **"يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً"**[1] ، إنه صاحب الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ولكن الإنسان حملها وهو ظلوم جهول ، فهو الذى يقول على لسان "فرويد" فى القرن العشرين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة كعملاق : " "لم يعد للحياة أى معنى يستحق الذكر" ، هذا القنوط الذى وصل إليه عملاقنا فى نهايته بعد أن أسرف مغالياً فى تحديه ، وأوصله به إلى الطريق المسدود يذكرنا بمصداقية الآية الخالدة المعيارية التى احتفظت لعباد الله المؤمنين به بالرحمة مهما كانت طبيعة المعاناة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : **" قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم"**[2] .

(١) النساء : ٢٨ (٢) الزمر : ٥٣

مـا أحـوج "فرويد" الذى أعطى للبشرية لو أنه انحنى لخالقه ولم يتكبر أو يستكبر لأن يرحم فى نهايته بعد قنوطه ويأسه من الحياة ، ولكنه أبى واستكبر مترجماً لأناته ، ومعبراً عنها فى كلمات متقطعة لفظها فى سكرات الموت معلناً لواقع الاحتجاج المضمر والكامن فى أعماقه ، والأسى المترسب فى وجدانه لمأساة التنكر والنكران بعد أن افتقد منه الزمان ، الذى توهم فيه الأمن والأمان ، تجاهل رحمة السماء فأضحى وجهاً لوجه مع قسوة وجبروت البلاء .

ويستمر بنا الحوار لننتقل به إلى فرنسا مع "جان بول سارتر" هذا الفيلسوف الوجودى الذى ترك بصماته فى ساحة الفكر لهذا العصر له ما له وعليه ما عليه ولكن كعملاق . فماذا عنه وعن نهاية هذا العملاق ؟

* * *

الفصل الحادى عشرة

"جان بول سارتر" ونهاية عملاق

"جان بول سارتر" الذى عرف نور الحياة فى مدينة النور بـ "باريس" فى ٢١ يونيو ١٩٠٥ ، وتابع دراسته بليسيه هنرى الرابع فى الفترة ما بين (١٩١٥ - ١٩١٧) . وتنقل فى ليسيهات أخرى ، ليلتحق بعد ذلك بالمدرسة العليا للأساتذة . وكان من رفاقه فيها "ريمون آرون" و"لجاش" و"نيزان" . ورسب فى التبريز فى الفلسفة عام ١٩٢٨ ليحصل عليه فى العام الثانى ١٩٢٩ بتفوق مع أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" وليعين أستاذاً لهذه المادة عام ١٩٣١ فى ليسيه"الهافر" . كما عمل أستاذاً فى مرسيليا وغيرها من المدن الفرنسية ، وأقام عاماً ببرلين ما بين (١٩٣٣ - ١٩٣٤) لدراسة "الظاهرية" أو بمضمونها الألمانى المعمق الظواهرية ليتعامل فكريا مع "هسرل" و"كافكا" وغيرهما . وبدأ فى النشر لأبحاثه فكان فى سنة ١٩٣٦ بحثه القيم عن "تسامى الأنا" ، وذلك فى مجلة "البحوث الفلسفية" . وعاد للعمل من جديد أستاذاً فى الليسيات (١٩٣٦ - ١٩٣٧) ، ثم نشر "الحائط" سنة ١٩٣٧ ، وظهر له فى سنة ١٩٣٨ "الغثيان" ليعبأ بعد ذلك فى الحرب العالمية الثانية فى الجبهة الشرقية . وقضى عام ١٩٣٩ فيها . وكان يعمل بقسم التنبؤات الجوية ، وعرف السجون فى عام ١٩٤٠ والمعتقلات . ثم كانت الحرية له بأنه ليس بحربى وأنه "مجرد مدنى" لا أكثر ولا أقل اعتقل بالشبهة . ومرة أخرى يعود للعمل فى الليسيات بباريس ، ويؤسس الجبهة التى حملت عنوان "المقاومين المثقفين" وظهر له فى سنة ١٩٤٣ "الذباب" وقبلها دراسة عن التخيل كما ظهرت له رائعته "الكائن والعدم" او "الوجود والعدم" ، كما ترجمت إلى العربية وأسهم بين المقاومين فى تحرير باريس .

كما أسس فى سنة ١٩٤٥ "الأزمنة الحديثة" ، وزار الولايات المتحدة

وكانت محاضراته هناك عن الوجودية نزعة إنسانية سنة ١٩٤٦ ، وظهر له "سن الرشد" و"طريق الحرية" . ثم كانت مواجهاته الفكرية مع الشيوعيين والفاتيكان سنة ١٩٤٨ ، كما أسس حزباً باسم **"التجمع الديموقراطى الثورى"** . وكانت له مواجهات مع "موررياك" سنة ١٩٥٢ . وفى نفس العام أيضاً مع "كامى" . ومعارضته لسياسة ستالين ، وتدخل الروس فى هانغاريا . ويلاحظ أن "جان بول سارتر" كثيراً ما كان يكتب فى المقاهى . ومنذ عام ١٩٤٢ حيث المكان المفضل له ، بل هناك مقاهى فى باريس اشتهرت لتردده عليها كمقهى **"الفلور"** ومقهى **"الديماجو"** . وكانت له لقاءات مع "هايديجر" . وإلى جانب أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" كان من المترددين عليه الأديب "جان جانى" ، وقد وضع عنه "سارتر" كتاباً بعنوان **"جان جانى الكوميدى الشهيد"** سنة ١٩٥٢ ، كما نذكر له أيضاً **"تأملات فى المسألة اليهودية"** سنة ١٩٤٦ و**"المومس المحترمة"** فى نفس العام ، و**"بودلير"** سنة ١٩٤٧ و**"الشيطان والإله الطيب"** سنة ١٩٥١ . ومن قبل كان قد كتب **"موتى بلا مدفن"** فى منتصف الأربعينات ، و**"الأيدى القذرة"** فى نهاية الأربعينات . ونذكر لـه مـن مؤلفاتـه الأخـيرة فى السـبعينيات **"أبله العائلة"** سنة ١٩٧١ وما تلاها ، **"فلوبير"** فى نفس الفترة ، وغير ذلك الكثير....

لقد أثرى "سارتر" بمؤلفاته ليس فقط الفكر الفرنسى المعاصر أدباً وفلسفة ، وإنما الفكر العالمى باعتبار أن العديد من هذه المؤلفات ترجم إلى اللغات الأخرى . ولم يشغل سارتر فقط حيزاً عريضاً واسعاً فى التأليف والإنتـاج المتنـوع والمتعـدد فـى الأدب والفلسـفة ، وإنمـا شـغل حـيزاً لا يستهان به من الحضور فى ساحة المواجهات ، واتخاذ المواقف دفاعاً عن المقهورين أو المصادرين ، وبالتالى قرن اسمه بالتحدى الفكرى لمواجهة النازية والشيوعية ، وحتى فرنسا العسكرية نفسها بموقفة من حرب التحرير فى الجزائر ، وتعاطفه مع قضايا الشعوب المقهورة والمستضعفة .

وسافر هنا وهناك من كوبا إلى مصر ، فضلا عن زيارته للاتحاد السوفياتى والصين . ومع هذا يؤخذ عليه موقفه من القضية الفلسطينية ، بعد زيارته للمنطقة ، وتعاطفه الصريح أو المقنع مع الإسرائيليين . وهو بلا شك فى بعض هذه المناحى غريب الأطوار ، متميزاً فى إيجابياته وسلبياته ، نخص بذلك رفضه لهذا التكريم العالمى الممثل فى جائزة نوبل للآداب ، مما كلف فرنسا أنها حرمت من الجائزة بعد ذلك قرابة عشرين عاماً ، أى حتى الثمانينات وحصول **"كلود سيمون"** عليها ، وكأن الأكاديمية السويدية أرادت بعد ذلك رد الاعتبار والهيبة لجائزتها ، ولقد ترأس "جان بول سارتر" محكمة "راسل" التى قامت بنقد وتفنيد السياسة الأمريكية فى ڤيتنام . وقد كان له موقف متميز أيضاً ضد تدخل روسيا فى تشيكوسلوفاكيا . فهو رافع علم الضدية ليتواجه مع كل أنواع القمع ، حتى فيما يعنى "شارل ديجول" رمز فرنسا ، وتظاهره ضده حينما تولى السلطة فى نهاية الخمسينات . وتعاطف مع النشاط اليسارى منذ عام ١٩٧٤ ، ورغم ظروفه الصحية التى لم تكن دائماً على ما يرام لم يتوقف نشاطه الفكرى .

ومن آخر الأعمال التى تذكر له عمل مشترك مع "بيبرفيكتور" بعنوان **"السلطة والحرية"** ولكن الموت أنهى عليه قبل أن ينتهى منه . ومن أواخر ما يذكر له كلقاءات فكرية ، لقاءات ثلاثة تمت معه عشية وفاته أجراها معه كأحاديث **"لمجلة الملاحظ الجديد"** الفرنسية الكاتب "بنى ليڤى" ورحل "جان بول سارتر" فى ١٥ إبريل ١٩٨٠ ليرقد إلى جانب من تعاطف معه ، وهو من مشاهير المستريحين فى مقبرة "مومبارناس" . ونعنى به "بودلير" وهنا نتساءل بعد هذه الفكرة المركزة والتى عرفنا من خلالها بـ "جان بول سارتر" عبر مراحل حياته وإنتاجه عن محور فكر هذا الأديب والفيلسوف الفرنسى المتحدى بوجوديته وبوعيه الشقى الساخر فى العديد من الأحيان حتى من خالقه ، كما هو الحال فى مسرحيته **"الشيطان والإله الطيب"** كما نتساءل عن نهايته كعملاق ؟

فيما يعنى فكر "جان بول سارتر" قد مر بمراحل جمعت بين ما هو نفسى وانتلوجى ودياليكتيكى ، فهو بالنسبة له "كل موجود يوجد بلا سبب" ، ويستطيل به العمر عن ضعف منه ، ويموت بمحض الصدفة كما ذكر فى **"الغثيان"** الإنسان فى **"الكائن والعدم"** أو **"الوجود والعدم"** نشوة لا يرى فيها أية فائدة . ولكن الوجودية حسب "سارتر" كنزعة إنسانية تطالبه أن يحقق نفسه خارج نفسه ، فليس هناك شئ بقادر على إنقاذه من نفسه ، بل عليه أن ينقذ نفسه بنفسه ، ويلاحظ أن "سارتر" بقدر تأثره بـ "هسرل" فى ظاهريته ، كان متأثرا بـ**"هايديكير"** . وقد تحفظ على بعض أفكار "هسرل" كما تحفظ أيضاً على النزعة الوضعية فى السيكولوجية لما تعانى من مزج وخلط بين الإدراك والتخيل ، وقد وضع سارتر كمنطلق لوجوديته أن الوجود سابق للماهية .

فالإنسان يوجد غير محدد بنعوت أو بصفة ، ويقفز بنفسه فى المستقبل ، بفضل ما يؤديه من أفعال . فالإنسان مشروع ولا شئ قبل ذلك . فهو المصمم لمشروعه والمحقق له بما يستطيع ، وبالتالى فهو مسئول عما يفعل مسئولية كاملة عن وجوده ، مسئوليته كمسئولية الجميع - فاختيار الإنسان مرتبط باختيار الآخرين . الإنسان ملزم للإنسانية كلها ، هذه المسئولية وهذا الإلزام هما مبعث القلق البالغ له ، كما أن إقلاع "جان بول سارتر" من أن الوجود يسبق الماهية ترتب عليه الحرية ، فهو الحرية نفسها ، الوجودية ليست بفلسفة استكانة واستسلام ، بل هى فلسفة نشطة تعرف الإنسان بفعله ، وليست بتشاؤمية لأن مصير الانسان بيده لا بيد غيره ، ووجود الذات بالضرورة يعنى إدراك وجود الغير . فالذى يتكشف عن وجود نفسه هو فى نفس الوقت يكتشف ويكشف وجود الآخرين ، وكذلك حريته بالضرورة تتوقف على حرية الآخرين والعكس . فاختيار الوجودى لحريته هو فى نفس الوقت اختيار الحرية للآخر ، لقد تأثر كما أشرنا "جان بول سارتر" بظاهرية "هسرل" وتطبيقات "هايديكير" لها ، حيث نلاحظ فى مؤلفه الهام **"الكائن**

والعدم" أو "**الوجود والعدم**" تمحور "سارتر" حول مقولة وجود الموجود ما يظهر عليه ، وليس له طبيعة مبطنة الظاهر حقيقة مطلقة ، الموجود لذاته لتحقيق نفسه لا يحقق ماهية خارجة عنه . الشعور هو مشروع وجود وليس الوجود المكتمل الثابت لا المتغير ، النزوع نحو المستقبل والتنصل من الماضى . فهو موجود فى اللحظة التى يوجد فيها ، بخلاف الأشياء الماضية ذات الوجود الثابت . من هنا كانت حرية الإنسان هى صميم وجوده الشعورى القلق ، هو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة ، وليس هناك طبيعة أزلية فرضت عليه ، ليس للإنسان تعريف فهو موجود أولاً ثم يظل يخلق ماهيته بما يختاره لنفسه من أفعال ، فليس للإنسان إلا ما يختاره لنفسه أن يكون . الموجود لذاته باختصار هو موجود بلا سبب ولا تفسير ، قذف به فى العالم فهو مسئول عن كل شئ وغير مسئول عن مسئوليته ، بينما الموجود فى ذاته هو الوجود المباشر وليس فيه إحالة لجوهر ثابت ، فهو سلسلة ظواهر تتكتل وليس فيها ثغرة ينفذ منها إلى العدم ، فهو الواقع المغتنى بنفسه ... وهو موجود فى ذاته بالفعل لا بالقوة . وحين عرضه لمفهوم الشعور ، هو يعنى بُعد الأشياء غير الموجودة ، وغير خاضع لضرورة الزمان والمكان التى تفرض نفسها على الأشياء ، الإنسان حسب "سارتر" لا يوجد الا بقدر ما يحقق بنفسه لنفسه . الإنسان ليس بشئ آخر غير حياته وخارج حياته ، وفى نقد العقل الدياليكتيكى يطرح لنا "سارتر" انطلاقاً من إنكاره لفكرة العقل الجماعى الذى يعلو على عقل الأفراد ، ويرى أن مسيرة التاريخ الإنسانى ليست شيئاً آخر غير الأفراد الذين تتكون منهم . فالأفراد هم الموجودون وهم التاريخ ، فارتكز فى جدليته بالتالى على الفعل الفردى .

وهنا يمكن أن نطرح تساؤلات حول علاقة فكر "سارتر" بالماركسية قرباً أو بعداً ، وإن كان بالنسبة لـ"جان بول سارتر" كثيراً ما يريد أن يتميز بأنه هو صاحب المفاهيم التأصيلية للماركسية غير المحرفة أو المزيفة . وهكذا يكون التساؤل : من هو الفاهم الموضوعى فى النهاية لهذه الماركسية

المتصورة ؟ يلاحظ هذا بالنسبة لـ "سارتر" كما يلاحظ بالنسبة لـ "لوكاتش" و"كاوتسكى" وغيرهم الكثير ممن حاولوا أن يفرقوا بين الماركسية الصحيحة والماركسية العوامية ، والماركسية الملتزمة والماركسية المرتدة ، وفى النهاية نعود الى البداية تحت هذا التعبير الذى يتردد دائماً : " ليس من المستبعد أن ماركس بدوره لم يعد ماركسياً" .

وعلى ضوء هذا يمكن أن تفهم العديد من التناقضات والمواجهات بين المتعاطفين مع الماركسية مع نقدهم لأحزاب الشيوعية . كذلك التفنيد لبعض النظم الماركسية من هؤلاء المتعاطفين ، بل التلاغى بين هذه النظم بمعنى كل يخطئ الآخر ويحاول أن يلغيه ، ومن ثم "جان بول سارتر" يوضع فى نقد العقل الدياليكتيكى داخل هذا الإطار .

ولمن يريد التفصيل عن هذه القضية يراجع "فليب هودار" فى مؤلفه الهام الذى صدر منذ سنوات (١٩٧٩) بعنوان : **"سارتر بين كارل ماركس وفرويد"** ، حيث إنه تعرض بعد أن شرح طريق الحرية للكائن ، و"سارتر" و"فرويد" النظرية والتطبيق وتركيزه على "أبله العائلة" واتجاهه إلى القول بالتصالح بين "فرويد" و"سارتر" . كما تعرض لـ "ماركس" و"سارتر" بين الحرية والتمرد والأمل وخيبة الأمل والرهان وتحدى الفيلسوف إلى غير ذلك من العناصر التى يمكن أن تلقى بعض الأضواء فى هذا المضمار .

ويبقى الشطر الثانى من التساؤل الذى طرحناه عبر هذا الحوار عن "جان بول سارتر" وماذا عن نهايته كعملاق ؟

هذا الفيلسوف المتمرد ، فيلسوف "الغثيان" و"الذباب" و"الوجود والعدم" و"الموت فى الروح" إلى غير ذلك من المعالم التى طرحها فى مؤلفاته ، حتى الإله كان لـ "جان بول سارتر" ، معه تعامل لا يدخل فى

إطار المتعارف مما حدى بأحد كتاب سيرته وهو "بريساك" أن يضع مؤلفاً قائماً بذاته يحمل عنوان **"إله سارتر"** . هذا الفيلسوف "جان بول سارتر" إلى أين وصل به تحديه وتمرده فى نهاية العمر وفى آخر المطاف ؟

بلا شك من يراجع الاحاديث الاخيرة التى أجراها "فيكتور بنى ليڤى" وهو من المقربين له ، ونشرت فى مجلة "الملاحظ الجديد" بالفرنسية إلى جانب ما كتبته "آنى كوهين سولال" بعد رحيل "جان بول سارتر" ونشر أخيراً عام ١٩٨٥ عند جاليمار بعنوان **"سارتر"** مؤلف ضخم يقع فى سبعمائة وثمانية وعشرين صفحة ، هاتان الوثيقتان ما كتبه "فيكتور بنى ليڤى" وما كتبته "آنى كوهين سولال" تعتبران من المراجع الأكثر حداثة ، بل والأكثر قرباً لاظهار "جان بول سارتر" من خلال اعماقه الحميمية وبدون رتوش . مع أخذنا بعين الاعتبار ما كتبه الآخرون أمثال :"جانيبان" بعنوان **"مع أو ضد سارتر"** وما كتبه مؤرخ سيرته "جونسن" وفى عدة مؤلفات عن فكره وحياته ، بل وما كتبته أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" قبل وفاتها ، وبعد وفاته ونشر عام ١٩٨٤ بعنوان **"مراسيم الوداع"** وغيرهم الكثير ممن كتبوا عنه واهتموا بسيرته . فالمتصفح لما خطه "فيكتور بنى ليڤى" فى أحاديثه مع "جان بول سارتر" وما كتبته "آنى كوهين سولال" ، وقد زامناه فى لحظاته الأخيرة . فـ"فيكتور بنى ليڤى" كان فى القاهرة . وحينما علم فى ٢٠ مارس ١٩٨٠ أن "جان بول سارتر" نقل على عجل إلى المستشفى عاد لتوه ليكون إلى جانبه . وشكل مع ابنته بالتبنى "آرليت إلكايم" ، وقد تبناها في نهاية الستينات . ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" و"آنى كوهين سولال" . المجموعة الأخيرة التى انعكس عليها هذا الفيلسوف ، هذا العملاق ومن خلالهم سوف نتكشف على نهايته .

نقل "جان بول سارتر" إلى المستشفى فى ٢٠ مارس ١٩٨٠ ، ولفظ أنفاسه ذات مساء من يوم ١٥ إبريل ١٩٨٠ ، خمس وعشرين يوماً

تكشف عنها تباين فى تقنين نهاية العملاق . بل هذا التباين تمحض عن مواجهات بين من كانوا يتمتعون بعلاقات خدنية مع الفيلسوف . ونعنى بذلك "سيمون دى بوفوار" من ناحية "وآرليت إلكايم" ابنته بالتبنى من ناحية أخرى . هذه المواجهات تحولت إلى مهاجمات علنية بينهن فى الصحف بعد وفاته . ربما يبحث عن جذور هذه المواجهات فى الفترة التى سبقت حمله إلى المستشفى ، بل ربما أيضاً كانت من الأسباب المباشرة التى أزمت الفيلسوف المتأزم وزادت من محنته حينما احتدت المناقشة فى مقر الأزمنة الحديثة مع من يحيطون به ، ونقل بعد ذلك مريضاً إلى المستشفى ليبارحها إلى القبر ، الجانب الذي يعنينا هو بالذات هل تصالح فى النهاية "سارتر" مع "سارتر" فى حضور الله ، أم غدر "سارتر" بـ"سارتر" أم اختفى "سارتر" المنتفخ المتبجج المستكبر ، أم تفاءل وتراجع أمام "سارتر" الضعيف المحتضر . إن أقرب أتباعه ومريديه وهو "باريونا" يؤكد أنه كان فى أعماق "جان بول سارتر" مسيحى متنكر يحجبه بتمرده ، كما جاء فى المؤلف الاخير لـ"آنى كوهين سولال" ص ٦٦٢ ، بل وحينما سئل الفيلسوف وفى النهاية الى أين قادته فلسفته ؟ أجاب :"فلسفتى قادتنى إلى هزيمة نكراء "وبيع" جان بول سارتر" عبر بقاياه وأمتعته فى المزاد العلنى ، وبأسعار زهيدة ، وكان ذلك فى يوم عادى وهو يوم ١٢ يونيو ١٩٨٤ فى الصالة رقم ١ من صالات المزادات بقاعة "دريو" الجديدة . أربع سنوات مضت بعد رحيل الفيلسوف ، وبيعت أمتعته ومخطوطاته ، وإن كانت فرنسا كرمته يوم رحيله إلى قبره فى مقبرة "مومبارناس" ، بل رئيس جمهورية فرنسا آنذاك "جيستار ديستان" أبى إلا أن يقف أمام جسد "سارتر" بخشوع ، بل وينحنى لا لـ "سارتر" وإنما لهذا الفكر الذى قدم من خلاله إعلاء لعقل فرنسا وتفوقه الإنسانى فى الغرب . بل طلب "ديستان" كرئيس للفرنسيين أن يودع "جان بول سارتر" إلى مثواه الأخير وداعاً وطنياً . ولكن حينما وصل الخبر إلى مسامع "جان بول سارتر" فى لحظاته الأخيرة رفض رفضاً باتاً ، وأبى إلا أن يرحل إلى

مثواه رحيل أى مواطن . ومن ثم احترمت رغبته بعد وفاته ، واعتذر المحيطون به من رفاق ، وحملوه فى وداع شعبى وصل إلى سبعة عشر ألفاً من الباريسيين شاركوا فى حمل نعشه ليرقد إلى جانب مفكر عزيز عليه ، وهو "بودلير" . فحينما ذهب الحميميون لـ "جان بول سارتر" وفاتحوا مدير مقبرة مومبارناس فى أن يخصص مكاناً لديه يستضيف فيه "جان بول سارتر" الاستضافة النهائية والأخيرة . فأجابهم قائلا : "إنى كما قرأت على علم بمدى توارد "سارتر" مع "بودلير" وسوف أجسد له هذا التوارد ليرقد إلى جانبه وإلى الأبد".

رحل "جان بول سارتر" وبعده بثمانية عشر شهراً رحلت أليفته ورفيقة عمره "سيمون دى بوفوار" والتى فضلت خلال هذه الشهور أن تسكن على مقربة من مرقده وإن كانت " آرليت إلكايم" ابنة "جان بول سارتر" بالتبنى لا تتفق مع "سيمون دى بوفوار" فى أن مشاعرها هى مشاعر الوفاء ، بل اعتبرت أن "جان بول سارتر" لم يكن بالنسبة إليها إلا جسراً عبرته لتحقق من خلاله رحلة طموحها إلى المجد ومسيرتها إلى الشهرة والاشتهار . ومهما يكن الأمر فما يعنينا ، هو أن نهاية هذا العملاق لم تشذ عن نهاية بقية العمالقة الذين عايشناهم فى رحلة حوارنا عبر فصوله المختلفة فـ "جان بول سارتر" كـ "فرويد" كـ "نيتشه" كـ "سترندبرج" كـ "ماكس فيبر" كـ "سبنسر" كـ "داروين" ، كـ "كارل ماركس" و"كونت" و "سان سيمون" فى النهاية نعود إلى نقطة البداية ، وإذا بنا نكتشف فى مسيرتنا الحوارية هذه حقيقة الإنسان هذا الذى أراد الله أن يخفف عنه تأكيداً لمعرفته بواقع أبعاده وحدوده كخالق ومصوِّر له ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :"**يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً**"[1] .

(١) النساء : ٢٨ .

ولكن هذا الصنف من العمالقة اختار أو على الأقل الجانب الغالب منهم طريق الاستكبار والتحدى باسم التمرد والوعى الشقى ، فكان ما كان من نهاية ، عرضناها بنزاهة وموضوعية ما أمكن ، وبأسلوب مباشر .

هذه النهاية هل هى "نهاية عمالقة" ذهبوا ليتركوا المكان لعمالقة آخرين يحملون الراية مكملين ومكملين لمسيرة الإنسان ؟ الإنسان الخارق ، إنسان "نيتشه" ، أم هى تعنى "عمالقة النهاية" لحضارة الغرب . نهاية العمالقة أم عمالقة النهاية ؟ هذا ما سوف نطرحه فى خاتمة هذا الحوار الذى خصصناه لحضارة الغرب من نهاية عمالقة فيها أم عمالقة النهاية لها .

* * *

خاتمة

نهاية عمالقة .. أو عمالقة النهاية

وصلنا بحوارنا عن عمالقة فى حضارة الغرب إلى النهاية . أنهاية لهؤلاء العمالقة فحسب . أم لكل العمالقة فى هذه الحضارة ؟ بمعنى أفول عصرها ودق النواقيس لها بالتراجع والإيذان بالنكوص والاضمحلال ، فالاحتضار والاندثار . شأنها فى ذلك شأن ما سبقها من حضارات كبرى سادت واندثرت .

إننا نستبعد من البداية أن تكون النهاية التى أوردناها فى حوارنا تعنى نهاية كل العمالقة . وإنما تعنى نماذج مختارة من هنا وهناك لعمالقة أساساً برزوا فى الفكر الإنسانى وعرضناها على سبيل المثال لا الحصر تاركين لغيرنا أن يقدم ما يراه من نماذج أخرى وما أكثرها لمن تعلقوا بتجاربهم المخبرية . واكتشافاتهم واختراعاتهم وابداعهم فى مختلف ضروب المعرفة . ومع هذا يبقى تساؤل مطروح بالنسبة لما ذكرنا وهو : إلى أى حد يجسد من اخترناهم من العمالقة أزمة لهذه الحضارة فى مسيرتها ؟ وهل هى أزمة عابرة وطارئة تنصب على وظائف الحضارة وتتجاوز بتصحيحها كما يتصور ذلك مروجو التفاؤل . أم أنها أزمة عضوية تنذر بالتفكك والانهيار كما يذهب إلى ذلك دعاة التشاؤم ومقرروه ؟ ففى نظر هؤلاء المتشائمين : الحضارة استلبت لإشباع وشهوة الاستهلاك ، متمردة على كل ما يوقف أو يحد من هذا المد سواء فى ذلك الإطار القيمى أو الروحى بل وفى بعض المناحى الإنسانية . فالعد النازل قد بدأ لحضارة الأشياء بعد أن تنكرت للإنسانية وباسم الإنسان . فاختنقت ذاتياً ، لا نتيجة لقوة أعدائها وخصومها أو من يتطلعون بميراثها ، ولا مصداقية لنبوءات "كارل ماركس" الخاصة بالتدمير الذاتى للرأسمالية ، فالتدمير حالياً لا يرى على مستوى شق معين من هذه الحضارة الغربية ، وإنما على مستوى شقيها الليبرالى والماركسى ، فالأم

واحدة وإن اختلفت المبررات والوسائل والركيزة الثلاثية التى يعتمد عليها كل شطر توجد بالضرورة لدى الشطر الآخر . ونعنى بذلك المعرفة التكنولوجية ، الأسس العلمية ، التطبيق الصناعى وما يملياه من برمجة وعقلنة على مستوى الإنتاج والتبادل والاستهلاك .

وهكذا أزمة الحضارة من الخطأ أن ترى على ضوء حيثيات أيديولوجية محددة قننت فى القرن التاسع عشر ، وإنما الأزمة أعم وأعمق نتيجة لتعدد العوامل المهيئة لها ، بل ولخصوصيات هذه الحضارة فى حد ذاتها باعتبارها حضارة ركزت على الوعاء والقالب للإنسان كجسد إشباعاً ورفاهية ورخاء ، وتلذذاً بالمقتنيات التى استلب بها فى النهاية ، ونسيت أو تناست ، جهلت أو تجاهلت الأبعاد الأخرى للإنسان وفى الصدارة **إنسانية الإنسان** ، فـ"مركيز" أحد فلاسفة العصر حينما ركز على الإنسان ذو البعد الواحد لهذه الحضارة لم يكن بعيداً عن هذا المنظور ، ودعوته إلى مواجهة حضارة التدمير وتجاوزها وما عاصر ذلك من أحداث فى نهاية الستينات ، متمركزة أساساً فى أواسط الشباب فى فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما ، مما جعل هذا الفيلسوف يتصدر من بين المبشرين بأفول حضارة الغرب .

ويزامن "مركيز" ويجاريه ولكن بحيثيات متباينة ، بل واختلاف فى الانتماء المذهبى والاختيار الفكرى ، عدد من الفلاسفة الآخرين التقوا جميعاً فى إبراز المأزق لهذه الحضارة من "راسل" وموقفه المعروف من الوجه النووى الذرى المدمر لهذه الحضارة ، ومسيراته فى هذا الشأن ، والمحكمة التى حملت اسمه مع "جان بول سارتر" وحتى "هيدجر" فيلسوف الوجودية المتميز ، وطرحه **للطريق التى لا تؤول إلى أى مكان** و"كارل جاسبرس" ومقولته عن الإدانة الألمانية ، و "كامى" الطاعون والعبث ، و "سارتر" الذباب والغثيان وغيرهم الكثير . ولم تقف موجة الإنذار عند حد الفلاسفة فيما يعنى مستقبل هذه الحضارة وما ستؤول إليه ،

وإنما نجد صيحات أخرى انطلقت من المخابر التكنولوجية ، وحسابات الكمبيوتر وما حولهما من تقنين تكنولوجى ، قدمته مجموعات مختصة من خيرة المهتمين بقضايا مستقبل البشرية فى القرن القادم أمثال مجموعة "ميدوز" و "فروستير" حينما طرحت ديناميات العالم أو حدود التنمية ، ووصل مع التباين فى بعض الجزئيات إلى تأكيد صيحة الإنذار عملياً ، وبحسابات وجداول مقننة تؤكد أن البشرية وما لديها من موارد ، إذا استمرت فى استنزافها بمناسبة وبدون مناسبة ، غير واضعة فى حسابها العطاء المحدود لهذه الموارد والكم الديموغرافى فى اللامحدود لدى المحتاجين إليها . هذه الموارد سوف تنصب فى بداية القرن الثانى والعشرين . ومن باب السخرية الشريحة الأخيرة من الموارد المستنزفة رأت أحد المجموعتين أنها سوف تشكل الرواتب الأخيرة للعلماء الذين سهروا على تقنين المأساة ، عالم بلا موارد ، بينما رأت المجموعة الثانية من باب السخرية أيضاً أن الشريحة الأخيرة من الموارد سوف يستولى عليها المكتنزون ممن تعودوا على اقتناء الكماليات واستهلاكها ، مرفهى الكون ، ومن ثمة نرى بغض النظر عن هذا الأسلوب الساخر أن التقنين التكنولوجى للموارد بتكامل تشاؤمه مع التقنين الذهنى للفلاسفة وما أعطى كحلول منومة أو مخدرة لتأجيل الشعور بالأزمة ، لا يتجاوز الطوباويات ، كمثال الدعوة إلى التخلى عن الصناعة والعودة إلى الزراعة والرعى والبيئة الخضراء الطبيعية ، أو الدعوة إلى الانحدار الديموغرافى بمعنى إضراب البطون بصفة قطعية وجذرية ، أو تبنى مسلسل الكوارث المحسوبة بالنسبة للبيئات الغاصة بالسكان بلا إنتاج ، أى عالمنا البئيس ، وذلك فى شكل حروب محلية عن طريق تسخين النعرات وبث الفتن أو تعميم الجفاف والتلوث المقنن إلى غير ذلك من الفرضيات اللاإنسانية أمام حضارة متنفرة ومفترسة ، إن كانت قد حرمت جانباً من البشرية من محاسنها إلا أنها تأبى إلا أن تعمم مساوئها تشارك البشرية برمتها فى مآسيها .

إن هذه الحضارة التى تفخر بما قدمت من إنجازات علمية وتكنولوجية مكن بفضلها الإنسان من أن يسبح فى الفضاء وأن يتنزه فرق القمر وأن يختزل المسافات بل والأزمنة ، وينتفخ بتراكمه المعرفى إلى حد التخمة وعسر الهضم لدى هذا الإنسان المتميز فى عصر متميز بدوره ليس فقط على مستوى الإيجابيات والإنجازات ، وإنما أيضاً على مستوى السلبيات بما فى ذلك الحروب المدمرة الأولى والثانية وتعدد وسائل الفناء للبشرية ، وكأنه لا تكفى وسيلة واحدة كالمتفجرات الذرية ، وإنما أضيف الهيدروجينية والسموم البيولوجية ، فضلا عن أن هذا العصر بقدر ما يفخر إنسانه بما حقق ، بقدر ما يشعر بمرارة تلوثه بيئياً وجسدياً ، ولم لا ؟ عقلياً ونفسياً ، فهو عصر تشرنوبل وما أحدثته من رعب بالتلوث الذرى ، وما حملته من سموم رياح الشمال القاتلة ، ووصلت أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلف آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات وإنسان العالم الفقير فى أشد الحاجة إليها ، كما هو عصر المضاربات التجارية ليس فقط فى البنيات الاقتصادية ، وإنما فى المستخرجات الطبية والصيدلية سعياً وراء الربح وتعدد أنواع الأدوية والسموم بحثاً عن الكسب ولو على حساب ضياع الجسد وإفشال الكبد والكلى . إضافة إلى تلوث آخر يتميز به هذا العصر وهو التلوث القيمى حيث يفاخر البعض بخروجهم عن القيم والتقاليد المتعارفة والتنكر لكل رباط مقدس حتى المحرمات أبيحت باعتبار أنها مجرد طابو ، وأسست جمعيات تدعو إلى ذلك ، وتعلن إباحة العلاقة مع المحارم كما أبيح الشذوذ الجنسى وأسست له جمعيات وشرع له بإباحة العلاقة بين نفس الجنس ، واكتمل البناء الانحرافى لهذا العصر بما يلمس حالياً على مستوى بعض القيادات العظمى فى الكون بما تمارسه علناً من رشوة وزيف وغش ، وأصبح موكب الفضائح على كل المستويات قاسم مشترك لا ينفصل عن العظمة فى الوقت الذى يحاسب المستضعفون على أقل الهفوات واللمم . وهنا يصدق قول الشاعر :

قتل امرئ فى غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

وانعكس العصر بهمومه على إنسانه ولم يجد له مخرجاً إلا فى ضياع هوية وعيه وإنسانيته فهو مدمن المخدرات ، "وباء فقدان المناعة" المعروف بـ"السيد أو "الإيدز" ، والانهيارات النفسية والانتحار الصامت المقنع والمعلن الصريح على حد سواء .

لقد تقدمت الدراسات النفسية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية وأشعت كعلوم متطورة للإنسان ، ومعها أيضاً تقدمت المعاناة والتلوث ، وعانى المتخصصون فى الانتحار على سبيل المثال من الانزلاق إلى الانتحار مثال "جاكوب مورينو" وغيره . كما أنه عصر غنى بالتنظير لتصور المجتمع الأمثل وتحقيقه . وعانى المنظرون وأصبحوا فى حاجة لمن ينظر لهم . مثال المنظر الأيديولوجى الماركسى الكبير "التوسير" ومأساته المعروفة و"بوانتازس" رائد المجموعة الماركسية المنظرة ، ومواجهاته مع "جان لوفيفر" المنظر الماركسى أيضاً فى أزمة الدولة أو دولة الأزمة ، وكيف انتهى به مطاف الأزمة إلى الانتحار .

هذه الحضارة حضارة المنتحرين وحضارة المبدعين فى نفس الوقت ، الحضارة التى أفرزت "هيمنجواى" المنتحر ، كما أفرزت من أبدعوا حتى فى إطار الفن وليس الأدب بمفهومه العام ولا الفلاسفة أمثال بيكاسو ، ودالى وغيرهما الكثير فضلا عن فنانة الأوبرا العالمية "ماريا كالاس" التى انتحرت بدورها وهى فى أوج شهرتها ومجدها ، والتقت معها أخيراً فى نفس المصير المغنية الشهيرة "داليدا" والقائمة طويلة . حضارة تعرى نفسها ولا ندرى طرباً أم جنوناً ، تحرراً أم تحللاً ، تفخر بأمثال "فوكو" الفيلسوف الذى رحل أخيراً ولا يمكن إنكار قدرته كمفكر ، ولكنه عرى وتعرى ، وكأن الشعار بات هو تعرية الحضارة فى جوانبها المختلفة .

هل هذه إرهاصات الإنذار أو النذير بتراجع المد الحضارى السائد وبالتالى نهاية عمالقة تعنى عمالقة النهاية أم عوارض ثانوية لا توقف سيرها ، تتأزم لتتحصن وتكتسب مزيداً من المناعة والقدرة على المقاومة ؟ بين هذه الفرضيات ، نعود لنركز على ما ذكرناه وفى إطار موضوعى بعيد عن التشفى بقدر بعده عن الملق والمداهنة ، بعيد عن التشاؤم وغلاته بقدر بعده عن مغالاة المتفائلين حينما قدموا هذه الحضارة الغربية على أنها الحضارة المعجزة والتى لا تقهر وهى الحضارة الوريثة لكل الحضارات السابقة بدوراتها المختلفة تجدد وتتكيف إلى أبد الآبدين .

الحضارة الغربية شأنها فى ذلك شأن كل الحضارات الكبرى ، لها ما لها وعليها ما عليها ، تستوعب من خلال خصائصها وهى : التخصص ، توزيع العمل ، العلوم كأساس ، التكنولوجيا كمعرفة والتطبيق الصناعى كوسيلة للتطور والتقدم ، ترتكز على اختزال المجال زمانياً ومكانياً بل توسعت فى مفهوم الاختزال فلم تقف عند حد المجال وإنما مارسته على المستوى المعرفى بوسائل مستحدثة كالكمبيوتر والتنوع الآلى عبر تكنولوجيا متطورة ، ترتكز أيضاً على الإنتاج بقدر تركيزها على التوزيع والتبادل والاستهلاك إلى غيرذلك من سمات العصر الذى تصدرت فيه التنمية الاقتصادية ، بمعنى تنمية الأشياء من مصادر الثروة حتى طرق إنتاجها وتحويلها واستهلاكها بل والاستلاب بهذه التنمية فى إطار التعلق بإشباع الشهوات والاستحواذ والاقتناء فى سرعة مسعورة ، لم يبق لها فى النهاية إلا أن تختزل الإنسان لهذه الخصائص إن كانت تحسب كحضارة للغرب إيجابياً فكثيراً ما أدت إلى انعكاسات وأصداء تحسب عليها . وهنا نستعيد ما طرحه سان سيمون فى تنظيره الصناعى سواء فى مؤلفه **عن تعاليم الصناع** ، أو فى مؤلفه الآخر "الأنسقة الصناعية" فى عدة أجزاء . حيث صوّر التقدم الصناعى كنسق وتعاليم كأرضية للمراهنة على الإنسان إن وعى بها أن يكسبها ويجعلها تتم لصالحه ، أو تنتهى بخسارة المراهنة ، ويصبح ضحية من ضحاياها باعتبار

أن الأسس العلمية قامت بتوظيف المعرفة التكنولوجية فى التطبيق الصناعى ، وكان المسير لذلك هو الإنسان الذى استطاع بما وصل إليه من نضوج فكرى عبر عصر الأنوار والمعارفين ، وما حققه من عقلنة وعطاء فلسفى ، على هذا الإنسان أن يظل فى موقع القيادة لما صنع لا المقاد بما صنع ، وهنا تعدد معيارية المراهنة ، هل الإنسان هو المراهن أو المراهن عليه ؟ هو المسخر للتقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعى ، أو المسخر لهم ؟ وكان ما كان من تزحلق بين المحاور الثلاثة : العلم والتكنولوجيا والصناعة . فالعلم الذى كان فى خدمة الإنسان من أجل الارتقاء بإنسانيته أضحى فى خدمة المردودية للمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعى لتؤول المراهنة فى النهاية إلى زيادة الصناعة بمشروعاتها الكبرى وإنجازاتها ، وما صاحب ذلك من اكتشافات واختراعات ، وتصبح الغاية ليس الإنسان وإنما المردودية ، وتم تزحلق تالى بعد ذلك وهو أن الصناعة التى حولت العلم إلى تابع لها بعد أن كانت تابعة له أصبحت بدورها مقادة بالتكنولوجيا التى آلت إليها الريادة وأصبحت مسيرة للتطبيق الصناعى والعلمى . فتراجع هدف المردودية لصالح هدف الارتقاء التكنولوجى فى حد ذاته . وهذا ما نلاحظه فى نهاية هذا القرن حيث التنافس بين الأعظمين يتم فى **ساحة التكنولوجيا المتطورة** - وأصبحت العظمة تقاس بمدى الاستحواذ عليها ، مدى استحواذ العظيم عليها . أو بعبارة مباشرة مدى استحواذها عليه ، وتسخير كل طاقات المجتمع لخدمتها . أين الإنسان بعد هذا التزحلق ؟ هذا الذى وظف العلم مسانداً بالمعرفة التكنولوجية والتطبيق الصناعى إذا به فى النهاية هو الموظف من قبل التكنولوجيا التى سخرت العلم والصناعة لخدمتها لتكيف الإنسان كما تشاء . وهنا نصل إلى واقع المراهنة الصناعية فى القرن العشرين ، وهل انتهت بهزيمة الإنسان أم بانتصاره ؟ . وهذا ما حدى بمجموعة من المفكرين ، وكان لنا الشرف أن نكون من بينهم لوضع نظرية المراهنة الصناعية فى بداية السبعينات ،

وفى خمس مجلدات تحت إشراف الأكاديمية الفرنسية وكوليج دى فرانس ، وتنسيق العلامة "فرونسوا بيرو" المنظر الأقتصادى العالمى ، وكانت بعنوان "السانسيمونية والمراهنة الصناعية" وقد أسهمنا بالمجلد الخامس عن **الصناعة وأزمة الحضارة** . إن كان من الصعب الجزم بخسارة أو كسب المراهنة ولكن ما نلاحظه حالياً من انقياد لهذا الإنسان الذى يعانى من تلوث البيئة بافتقاد صفاء الجو وخضرته ، وتلوث الجسد بالكيميائيات فى شكل أدوية تؤخذ بمناسبة وبدون مناسبة . وتلوث العقل بالمخدرات ، وتلوث العلاقات الجنسية بالإيدز ، هذا الإنسان المتعدد فى تلوثه بعد أن تجاهل إطاره القيمى ، وسخر المعنويات والمبادئ الأخلاقية العليا ، فضلا عن تجاوزه أو تجاهله للمبادئ الروحانية الخالدة لتصبح فى خدمة طبائعه وغرائزه ، يكيفها حسب نفعيته وشهوته وما ينتظر من مردودية . هذا الإنسان الذى جفت فيه المشاعر والعواطف العميقة ، وأصبح جزءاً من آلية العصر هو فى الواقع يقوم بتسديد كشف لحسابات مغلوطة ، أصبحت ثمناً لتفوقه وتمرده الذهنى الذى أعطى الكثير ولم لا ؟ افتقد الكثير ، إنه إنسان حضارة الغرب الذى لا يعنى بالضرورة هذا الغربى الأوروبى الليبرالى ، أو الغربى الماركسى ، فالأم واحدة ، وإنما هذا الذى أفرزت حضارة الغرب فى كل مكان ، محاكاة وتقليداً للسائد المسيطر ، فبقدر ما يحسب لحضارة الغرب ما حققه من تفوق بقدر ما يحسب عليها ما أحدثته من خسران .

حضارة الفضاء ، حضارة السابح فى الفضاء ، والمتنزه على القمر ، والمتحكم فى المعرفة بفضل الكمبيوتر ، هى أيضاً حضارة المفجر لبرك من الدماء عبر الحرب العالمية الأولى والثانية ، والمغذى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للفتن والقلاقل تحت ستار مسميات ما أنزل الله بها من سلطان يزكيها سماسرة الحروب ، وبائعى أسلحة الدمار ، حضارة قبل أن تتناقض مع الآخرين تناقضت فى حد ذاتها . وكما قالها الفيلسوف الشهير "برتراند راسل" : "حضارة العقل قدمت لنا اللامعقول" ، حضارة

تفخر بأنها جاءت لتدعيم المد الإنسانى ، فإذا بها تقع فى خطأ مطبعى لتصبح حضارة مصادرة الإنسان باسم الارتقاء بإنسانيته . فقد صودرت فى الإنسان مشاعره وعواطفه ومصداقيته وقناعته الإيمانية ليتحول إلى جهاز يعطى حيثيات تبريرية للنقيض ، الغش والزيف والمضاربة أعطيت لهم مسميات التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ ، إنها تمارس المبدأ المغلوط "حلال علىّ حرام عليك" ، حضارة عملاقة فى انتصاراتها بقدر ما هى عملاقة فى انهزاماتها وانتكاساتها . ويبقى التساؤل الأخير هل هذه إرهاصات النهاية لحضارة العمالقة ، أو نهاية لإرهاصات الأزمة والتعرف على موقع الداء تحقيقاً لما أشار إليه "سان سيمون" فى تنظيره من تناوب الفترات بين النقد والتنظيم بالنسبة لمسيرة التاريخ ؟

ففى مرحلة النقد لا تكمن عناصر الإقلاع للفترة التنظيمية ، والعكس حينما تحل الفترة التنظيمية إلى قمة إشعاعها وعطائها ابتدأ فى التراجع لتؤول إلى فترة نقدية . وهكذا تتداول الأيام بين الأمم ، فانطلاقاً من مبدأ التناوب يمكن تقنين ما يلاحظ فى الدورة الحضارية الغربية السائدة حالياً من ثقوب ومآخذ على أنه يجسد فترة نقدية قد تستعيد بعدها الدورة الحضارية الغربية قدرة دفعها باستعادتها لإنسانية الإنسان ، بعد أن أشبعت حيوانيته رخاء ورفاهية حتى التقيؤ ، كما يمكن أن تكون هذه الفترة النقدية بداية لمرحلة جديدة متميزة ، بقدر ما تحتفظ بإنجازات الفترة الحالية ، وما حققته من انتصارات بقدر ما تتطلع إلى التعدد والتنوع فى مواقعها ، وهذا ما جعل البعض يتنبأ بدورة حضارة الباسيفيك المجسدة لقمة التكنولوجيا المتطورة ، ممثلة فى جانبى الباسيفيك : الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، والبعض الآخر يتطلع إلى وراثة الحضارة الغربية كلياً أو نسبياً فى وسائلها بعد تجاوز إنسانها ويرمز إلى ذلك بالصين ومليارها . ولم لا ؟ هنا نتطلع بدورنا إن صلح أمرنا إلى مكان فى إطار هذا التعدد الحضارى ممثلا فى مليارنا بانتمائه

الإسلامى كقاسم مشترك ركيزته الوطن العربى قبلة المسلمين وأرضية إقلاعهم ، وحزامه المد الإسلامى فى آسيا وإفريقيا . ولكن كيف مع هذه الوضعية المتأزمة للمسلمين ؟

الإسلام كانتماء يمكنه أن يطرح فى إطار التعدد الحضارى ليتصدر وكقاسم مشترك كما أشرنا تجسد خصائصه وحدة الأرض والتاريخ فضلا عن وحدة العقيدة وانتهاء بوحدة اللسان . قاسمنا المشترك كمليار من البشر لا يقل إذن فى ركائزه عن القواسم المشتركة التى تمثل الكيانات الكبرى حالياً من الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاتحاد السوفياتى ، إلى الولايات الهندية إلى الصين وحتى الاتحاد الأوروبى .

كل هذه الكيانات منها ما يرتكز على وحدة الأرض أو وحدة اللغة ، أو هما معاً ، وقلما نجد الركائز الأربعة كما هو الحال فى القاسم المشترك الإسلامى فى الانتماء لنظم تتعدد فى إطارها السياسى والاقتصادى ولكن تلتقى حينما تكون فى مواجهة مع كيان من الكيانات الكبرى . وليس بالضرورة تأزم حال المسلمين حالياً يعنى تأزم الإسلام . فكما نكرر دائما : "أزمة جيل ليست بأزمة مصير ، وأزمة نخبة ليست بأزمة أمة" . فالمسلم المتفهم لإسلامه والمتفاهم معه يسهل عليه أن يفهم ويتفاهم مع أخيه المسلم ، ويصبح قادراً على أن يتحاور أو يتواجه موضوعياً مع الآخرين .

غير أن هذا المسلم لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكى والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها ، ويستعيد مكانته بين موائد الكبار ، بفضل ما فى جعبته من صواريخ وأدوات للدمار ، وإنما يتحقق مستعيداً لذاته وبنائه كإنسان فى عصر عزت فيه إنسانية الإنسان ، فهو بملياره المتحلى بسلوك القرآن ، الإنسان المتوازن المتعادل ، روحاً وجسداً ونفساً ، المتعادل فى مشيته وانفاقه ، بل حتى فى صوته الخاشع لربه ومنه يستلهم الهدى والنور . هذا المسلم السوى بسلوكه المتميز سوف يجسد أداة

تصحيح لتطور تكنولوجى وعلمى وصناعى آل فى النهاية بالإنسان إلى ما يشبه الآلة الصماء التى افتقدت أبسط مظاهر الإنسانية مع أنها واعية ولكن بوعى شقى لما تعانيه ، وكيف أنها وهى فى قمة مجدها تجسد قمة معاناتها بعد أن أستلبت بزخارف الدنيا وزينتها ، ولم يعد فى انتظارها إلا الحصيد ، تحقيقا لقول الحق سبحانه وتعالى : **«حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس»**[1] . كم كان رائعاً وخالداً أن يحدد لنا القرآن ما يداخل الإنسان من غلو مكابرة واستكبار مجرد أن الدنيا تزخرفت له فيزعم أنه قادر عليها وعلى حفظها . وهذا ما نلاحظه الآن على لسان ممارسى العظمة فى هذا الكون ، وادعائهم بمناسبة أو بدون مناسبة ، أنهم سدنة الأرض وحراسها ، وأنهم قد قسموها كمناطق فيما بينهم ، ولم يبق إلا أن يأتى أمر الله ليجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، لا بفنائها ، فالقرآن لم يستعمل : "كأن لم تكن بالأمس" .

أغرت الإنسان وأغوته لتعود الأرض بعد هذا الحصيد إلى حالتها الطبيعية بعد زوال جناها ، وإنما المعنى هو أن يحصد ما فوقها من طفيليات المصطنع القائم على الزيف والاستكبار ، وهنا لا نقول : يلتقى القرآن مع ما أبرزه جانب من عمالقة حضارة الغرب فيما يعنى مأزقها وطريقها المسدود الذى لا يؤول إلى أى مكان . وأنها حضارة التدمير والبعد الواحد ، وإنما هذه الصيحات من أفواه العمالقة وإنما هى التى تلتقى مع ما أنذر به القرآن الكريم ، وكيف أن المغالاة تلتهم الصانعين لها بعد افتقادهم لتوازنهم . فالإسلام ممثلا فى عصر النبوة بالوحى الخالد والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة فى تراث المسلمين ، هو الذى يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء فى كل مكان ، كما يشق طريقه إلى عقول

(١) يونس : ٢٤ .

العمالقة فى حضارة الغرب ، بعد أن أعيتهم الطرق طالبين النجاة لعقل كرّمه الله وأظله الإنسان .

وفى النهاية .. أهى نهاية عمالقة فى حضارة الغرب أم عمالقة النهاية ، إن كنا نستبعد شمولية النهاية لكل العمالقة ، ومن باب أولى أن نستبعدها كنهاية لهذه الحضارة . لما لديها من إمكانات قادرة ولو نسبياً على التجاوز واحتواء الأزمة ، ومع هذا فمن صاحبنا فى هذا العرض منذ البداية سوف يصل معنا إلى قناعات موضوعية وهى أن النهاية ليست لأقزام منهزمين جبناء أو ضالين ، أو منحرفين لقطاء ، وإنما هى بحق لعمالقة تمردوا وبوعى شقى على وحى السماء لاستبداله صراحة أو ضمناً بفلسفة الإنسان فكان ما كان : من تأزم للعقل واستلاب للإنسان . وصدق الحق سبحانه حين يقول : **«يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً»**[1] .

* * *

---

(١) النساء : ٢٨ .

دكتور "رشدى فكار"

● المؤهلات . والعمل . والانتاج .. باختصار :

– من مواليد الكرنك بمحافظة قنا – جنوب مصر العربية .

– بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضا بالمعادلة ، واصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوربون ، حيث تخرّج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب «تخصص فلسفة بالمعادلة» من جامعة جنيف .

– حصل على دبلومين فى الدراسات العليا من باريس أحدهما فى الاجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

– حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦.

– توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة چنيف عام ١٩٦٧.

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، واقرار ترشيحه لجائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦:

– مكلف بمحاضرات بالسوربون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

– محاضر فى جامعة چنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

– عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيوشاتل ١٩٦٢ – ١٩٦٣.

– أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤.

– أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨.

– أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخري.

– شارك فى الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة فى الجامعات الأوروبية والعربية .

– ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :

– عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .

– عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية «أدلف» (A.D.E.L.F.) بباريس .

– انتخب عضواً مشاركاً فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين – دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣.

– أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية «لجائزة نوبل فى الآداب» منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :

أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية «أدلف» وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الكسو). والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..

إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

● **الإنتاج العلمى :**

- يتجاوز إنتاجه العلمى حاليا ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساسا ، والعربية والإنجليزية.

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع «**الكتالوج الدولى لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس**»..

● **فى الإنتاج العالمى بالفرنسية والإنجليزية .. على سبيل المثال :**

- السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالمية دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨.

- المراهنة الصناعية فى خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء فى الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات فى دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد الخامس عن (الصناعة وأزمة الحضارة) منشورات «دى نويل» .. «كويلج دى فرانس» والأكادمية الفرنسية سنة ١٩٧٢.

- علم الإجتماع ، وعلم النفس والانثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جنيف ١٩٨٠ - ١٩٨١.

● **وفى الإنتاج بالفرنسية عن العالم العربى والإسلامى :**

- نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى - الفرج بعد الشدة - عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥.

- تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣.

- انعكاسات السوسيولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤.

- أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣.

- الحياة اليومية فى مصر إبّان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥.

● فى الإنتاج باللغة العربية :

- دراسات أنثروبولوجية اجتماعية (السحر وما حوله) دار النجاح - بيروت سنة ١٩٧٣.

- الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف - الرباط ١٩٧٤

- أوجيست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام (منشورات مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨.

- وضعية الدراسات السوسيولوجية فى المشرق العربى (منشورات مركز البحث العلمي) الجامعى بالرباط سنة ١٩٧١.

- الإسلام بين دعاته وأدعيائه - الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦.

- الماركسية والدين- الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩ .

- فى البغاء الوحشى - القاهرة - مكتبة وهبة . والرباط - المكتبة الجامعية سنة ١٩٧٩.

- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسوعى القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠.

- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد - القاهرة - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠ .

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢.

- خميس البكرى - د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول مشاكل العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦.

- خميس البكرى - د. رشدى فكار المفكر الاسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨ .

- سيد أبو دومة - د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٩ .

إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة.

● ومن أحدث مؤلفات الدكتور رشدى فكار . كما أشرنا سلفاً :

- موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة - تعتبر منعرجا هاماً فى التقنين المعرفى «الابتسومولوجى» لمفاهيم علوم الإنسان الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

* * *

إسلاميات

(سلسلة العالم العربى الإسلامى)

للدكتور رشدى فكار[1]

● **عن دور النشر العالمية :**

– **الفرج بعد الشدة عند مفكرى الإسلام** ، لاهاى بخهوف ، باريس ، أدريان ميزونيف مجموعة كارنو (١٩٥٥) .

– **تأملات حول الإسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى** ، باريس . ميزونيف ولاروز (١٩٧٢) وفى عدة طبعات أخرى .

– **أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى** ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٢) وفى عدة طبعات .

– **انعكاسات السوسيولوجيا الوضعية فى العالم العربى** ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٤) وفى عدة طبعات .

– **الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر** ، باريس ، ميزونيف ولاروز (١٩٧٥) .

● **عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :**

– **الفكر التقدمى فى أوروبا وأثره فى الشرق (١٩٥٩).**

---

(١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكامل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية والعربية والإنجليزية ، يراجع : كتالوج مكتبة جامعة چنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سيرته المودعة « بمؤسسة نوبل » باستكهولم ، السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف)...

● عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية):

السحر وما حوله مع ملحق عن إنسان القرآن ، دراسة أنثروبولوجية اجتماعية (١٩٧٣).

● عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع بالقاهرة (بالعربية) :

– تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع (فى مجلد سنة ١٩٨٠).

– نظرات إسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى (١٩٨١).

– لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر – الطبعة الأولى (١٩٨٢) .

– خميس البكري : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار متواصل حول مشاكل العصر (١٩٨٦) .

– خميس البكرى : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين (١٩٨٨) .

– سيد أبو دومة : د. رشدى فكار المفكر الإسلامى العالمى ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب (١٩٨٩) .

● عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :

– أمصريون فقط ؟ حوار مطول حول القضايا الأيديولوجية المعاصرة ، فى كتاب عن الدكتور رشدى فكار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالي (١٩٧٦) .

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨/٧٠٣٨
الترقيم الدولى ٩٧٧-٣٠٧-١٦١-٨-

ISLAMIATE

(Serie du Monde arabo-musulman)
de Dr. R. FAKKAR

- **Editions Internationales.**

  - La Délivrance après l'Angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
  - Réflexions sur l'Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et plusieurs éditions.
  - Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditions.
  - Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
  - Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.

- **Edition Al-Hilal, Le Caire (en français).**

  - La pensée progressiste en Europe et son influence en Orient. (1959).

- **Edition Dar Al Najah, Beyrouth (en arabe).**

  - La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale. (1973).

- **Edition Wahbah, Le Caire (en arabe).**

  - Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société. I vol. (1980).

---

(1) Pour les œuvres completes de Dr. R. Fakkar: ouvrages principaux et autres travaux, en français, en anglais, et en arabe voire, Catalogue de la Bibliothèque de l'Université de Genève, Lettre F., La Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées jusqu'a 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

- Vues musulmanes sur l'Homme et la société aprés 14 siecles, (1981).
- Methodologie et dialogue. (1982).
- Khamis el-Bakry, Dr.Rouchdi Fakkar en Dialogue Avec les Problèmes de Notre Temps. (1986).
- Khamis el-Bakry, Dr.Rouchdi Fakkar en Dialogue avec les Problemes de l'héritage culturel des musulmans . (1988).
- Sayed Abu Doma, Dr. Rouchdi Fakkar Penseur Islamic Mondialement connu et la fin des géants dans La civilisation occidentale. (1989).

● **Editions, Maison du peuple, Le Caire (en arabe).**

- Long dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr.Rouchdi Fakkar, ouvrage sur lui, élaboré par l'écrivain égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976).

* * *

premiere édition

1409 H. - 1989

Dr. ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

ET

LA FIN DES GEANTS dans LA CIVILISATION OCCIDENTALE

Introduit et présenté
par
SAID ABOUDOMA

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE
14 Rue, GAMHORIYAH
LE CAIRE
1989